من روائع النصائح والوصايا

لفتة الكبد إلى

نصيحة الولد

الإمام الحافظ
أبو الفرج بن الجوزي

نصح بها ولده أبا القاسم بدر الدين علي
المولود سنة ٥٥١ هـ والمتوفى ٦٣٠ هـ

شرح وتحقيق

أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم
عفا الله عنه

مكتبة الإمام البخاري

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

فسح وزارة الاعلام رقم ٢٣٣٠/م وتاريخ ١/٤/١٤١٢هـ

مكتبة الإمام البخاري
مصـر ـ الإسماعيلية ـ تليفون ٢٢٥٤١٧/ ٠٦٤
٤٦ شارع الجمهورية «الثلاثيني»

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ التَّحقِيقِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾

[النساء : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١]

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأُمور مُحْدَثَاتُهَا وَكُل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

قال الله تعالى في تنزيله المُحْكَم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ ﴾

[التحريم: ٦]

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : « قال : عَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ وأَهْلِيكُم الخَيْر »[١] وتعليم النفس والأهل الخير من الأسس والدعائم التي قام عليها بناء المجتمع الإسلامي الأُول . والذي لن تقوم للمسلمين قائمة اليوم إلا به فلن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

فقد أرسى دعائمه معلم الإنسانية ومن أرسله الله رحمة للعالمين معلم الناس الخير محمد رسول الله ﷺ .

فانظر إليه عندما يحذر ابنته الحبيبة إليه وأسرع الناس لحاقاً به فاطمة وهو يقول لها : « يَا فَاطِمَةَ بنت مُحمَّد ! أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّار فإنِّى

---

(١) أثر صحيح : أخرجه الحاكم (٤ / ٤٩٤) والخطيب في الفقيه والمتفقه (١ / ٤٧) والسمعاني في أدب الاملاء والإستملاء (ص ٢) .

وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » وهو كما قال .

لا أُمْلِكُ لَكِ مِن الله شَيْئاً »[1] وتلمح هذه الوصية المباركة التي جمعت الخير بحذافيره وهو يوصى بها ابن عمه عبد الله بن عباس عندما كان رديفه ذات يوم فقال له : « يَا غُلاَم أويَا غُلَيِّم ألاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ ؟ فقلت : بلى . فقال : احْفَظ الله يحفظك ، احْفَظ الله تَجِدْهُ أَمَامَك ، تَعَرَّف إلى الله في الرَّخاء يَعْرِفُكَ في الشِّدَة ، إذا سألت فاسْأَلِ اللهَ وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، قد جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُو كَائِنٌ ، فلو أَنَّ الخَلْقَ كُلُّهم جَميعاً أَرَادُوا أن يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لم يَكْتُبْه اللهُ عَلَيْكَ لم يَقْدِرُوا عَلَيْه ، واعلم أنَّ فى الصَّبر على ما تَكْره خَيْراً كَثِيراً ، وأَنَّ النَّصْـرَ مع الصَّبر ، وأَنَّ الفرج مع الكَرْب وأَنَّ مع العُسْرِ يُسْرَاً »[2] وقد انتفع ابن عباس بهذه الوصية الرائعة انتفاعاً عظيماً حتى صار الإمام البحر عالم العصر وترجمان القرآن ورَبَّاني هذه الأُمَّة[3] .

وهذه الوصية الرائعة التي بين أيدينا اليوم من إمام ملأ ذكره الأسماع واستحق أن يطلق عليه « واعظ الآفاق ، ومفخرة العراق » فكم أدمع عيناً ؟ وكم رقق قلباً ؟ .

فما أعظم نفعها ؟ .

---

(١) أخرجه مسلم : كتاب الايمان : باب في قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٢٠٤) (٣٤٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) حديث صحيح : يأتى تخريجه والكلام عليه ص (٦٤)

(٣) راجع تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبى (١ / ٤٠ ، ٤١) .

فبها يتذكَّر الغافلون وبها يتعلَّم الجاهلون ، وبها يتوب المذنبون .

وما أحسن كلامه ومناجاته فهو الذي يقول : « ارحم عبرة ترقرق على ما فاتها منك وكبداً تحترق على بعدها عنك .

إلهى ! إلهى ! علمى بفضلك يطمعنى فيك . ويقينى بسطوتك يوئسنى منك .. وكلما رفعت ستر الشَّوق إليك أمسكه الحياء منك ..

إلهى ! لك أذل وبك أذل ، وعليك أُدل » .

رحم الله ابن الجوزى ورضى عنه [1] وحشرنا وإياه في زمرة الطائفة الناجية المنصورة .

وسبحانك الَّلهُمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

مدينة الإسماعيلية

في يوم الجمعة ٢٦ صفر ١٤٠٩ هـ

أشرف عبد المقصود

---

(١) تأمل هدانى الله وإيَّاك الحافظ ابن الجوزى وهو يقول فى صيد الخاطر ص (٢٣٦) : « ولقد جلست يوماً فرأيت حولى أكثر من عشرة آلاف ما فيهم إلا من قد رقَّ قلبه ، أو دمعت عينه . فقلت لنفسى : كيف بك إن نجوا ، وهلكت : فصحت بلسان وجدى : إلهى وسيدى إن قضيت على بالعذاب غداً فلا تعلمهم بعذابي صيانة لكرمك لا لأجلى ، لئلا يقولوا عذب من دلَّ عليه ... » ا . هـ .

وراجع لطائف المعارف لابن رجب في الكلام على هذه الحكاية ص (١٧١) .

منهج تحقيق الرسالة

١ ـــ تخريج الآيات القرآنية مع وضع التخريج بجوار الآية .

٢ ـــ تخريج الأحاديث المرفوعة وبيان حالها من حيث الصحة أو الضعف ، وإذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما لأن العزو إليهما مُعْلِمٌ بالصحة كما هى طريقة الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين ، وطلباً للاختصار أيضاً في التخريج حتى لا يُصْرَفُ القارىء عن المقصود .

٣ ـــ تراجم لأشهر الأعلام الواردين بالرسالة مع ذكر نبذة من أحوالهم .

٤ ـــ عمل عناوين لكل فصل بحيث تناسبه .

٥ ـــ علقت عند الحاجة على بعض المواضع التي تحتاج إلى تعليق وذلك بتعليقات زهدية وفوائد علمية وآداب جلية .

٦ ـــ ضبط وشكل الأَحاديث والآثار والأشعار وبعض الكلمات في

الرسالة [1]والنسخة التي اعتمدنا عليها هى مطبوعة بالمطبعة السلفية بالقاهرة . وقد طبعت هذه الرسالة مِرَاراً فطبعت بمطبعة السُّنة المحمدية ضمن مجموع « من دفائن الكنوز » بتحقيق الشيخ حامد الفقى رحمه الله ..

وطبعت بالمطبعة السلفية بالقاهرة بعناية الشيخ محب الدين الخطيب رحمه الله ، وطبعت بمكتبة حميدو بالإسكندرية بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد وغير ذلك من الطبعات . وبالمكتب الإسلامى تحقيق د . مروان قباني .

---

(١) والرِّسالة ذكر الحافظ الذهبى في السِّير (٢١ / ٣٧٥) أنها جزء .

تَرْجَمَةُ ٱلْوَالِدِ «صَاحِبُ ٱلْوَصِيَّةِ»
الْحَافِظُ أَبُو ٱلْفَرَجِ بْنُ ٱلْجُوزِيّ

□ **اسمه ونسبته:**

هو أبو الفرج ، جمال الدين ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيد الله بن الجوزى القرشى التميمى البكرى من بنى محمد بن أبى بكر الصديق ، البغداديّ الحنبلي [1] .

□ **مولده ونشأته:**

ولد سنة تسعٍ أو عشرٍ وخمسمائة .

ثم لما ترعرع ، حملته عمَّتُه إلى ابن ناصرٍ ، فأسمعه الكثير ، وأحب الوعظ ولهج به ، وهو مراهق ، فوعظ الناس وهو صبىٌّ .

توفى والده وله ثلاثة أعوام ، فربته عَمَّتُهُ . وأقاربه كانوا تجاراً فى النحاس ، فربما كتب في السَّماعِ عبد الرحمن بن علىٍّ الصفار .

(١) ذيل الروضتين ص (٢١) والبداية والنهاية (١٣ / ٢٨) .

وكان أول سماعه في سنة ١٥٦ هـ كما ذكره الذهبيُّ (١) .

وكان وهو صبيٌّ ديّناً لا يُخالط أحداً ولا يأكل ما فيه شبهة ولا يخرج من بيته إلا للصلاة وكان لا يلعب مع الصبيان ، ذو همة عالية جداً ولقد ظَلَّ طول حياته يطلب العلم وَيعِظُ ويُصَنِّف (٢) .

□ **شيوخة:**

تولّى الحافظ ابن الجوزى تعريفنا بأشياخه في كتابه « مَشْيَخة ابن الجوزى » ذكر فيه طائفة كبيرة منهم فانتفع في الحديث بملازمة ابن ناصر وفي القرآن والأدب بسبط الخياط وابن الجواليقى وكان آخر من حدث عن الدِّينَوَرِيّ والمتوكليّ (٣) .

□ **تلاميذه:**

حدَّثَ عنه : ولدُهُ الصَّاحبُ العلامة محيى الدين يوسف أستاذ دار المستعصم بالله وولده الكبير علىٌّ النَّاسخ ، وسبطه الواعظ شمس الدين يوسف بن فرغلى الحنفى صاحب مرآة الزمان ، والحافظ عبد الغني ،

---

(١) ذيل الروضتين (٢١) والذيل على طبقات الحنابلة (١ / ٤٠١) وشذرات الذهب (٤ / ٣٣٠) .

(٢) البداية والنهاية (١٣ / ٢٩) وصيد الخاطر (٢٣٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) .

والشيخ موفق الدين بن قدامة ، وابن الدُّبَيْثي وابن النجار والضياء وخلق سواهم [1] .

□ أولاده:

ذكر سبطه أبو المظفر ومعظم من ترجم له أن له من الذكور ثلاثة :

الأول : أبو بكر عبد العزيز وهو أكبر أولاده تفقه على مذهب أحمد وسمع أبا الوقت وابن ناصر والأرموى وجماعة من مشائخ والده .

وسافر إلى الموصل ووعظ وحصل له القبول التام ويقال أن بني الشهرزورى حسدوه فدسُّوا إليه من سقاه السم فمات بالموصل سنة أربع وخمسين في حياة والده [2] .

الثاني: أبو القاسم بدر الدين على الناسخ وستأتى له ترجمة مستقلة وهو الذى عناه أبوه بهذه الرسالة .

الثالث: أبو محمد يوسف محيي الدين [3] الذى كان أنجب أولاده

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٦٧) .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤٣٠ ، ٤٣١) .

(٣) راجع ترجمته في : سير أعلام النبلاء (٢٣ / ٣٧٢) والعبر (٥ / ٢٣٧) ودول الإسلام (٢ / ١٢٢) والبداية والنهاية (١٣ / ٢٠٣) وذيل طبقات الحنابلة (٢ / ٢٥٨ ـــ ٢٦١) والعسجد المسبوك (٦٣٥) وشذرات الذهب (٥ / ٢٨٦ ، ٢٨٧) . ومختصر طبقات الحنابلة لابن شطى ص (٥٧) .

وأصغرهم ولد سنة ٥٨٠ هـ ووعظ بعد أبيه واشتغل وحرر وأتقن وساد أقرانه ثم باشر حسبة بغداد ، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد ولاسيما بنى أيوب بالشام ، ثم صار أستاذ دارية الخليفة المستعصم فى سنة ٦٤٠ هـ واستمر مباشرها إلى أن قتل سنة ٦٥٦ هـ قتله هولاكو صبراً عند احتلاله بغداد وتدميره لها وذلك مع أولاده الثلاثة : جمال الدين وشرف الدين ، وتاج الدين . وله تصانيف عدة منها : « معادن الأبريز فى تفسير الكتاب العزيز » ومنها « المذهب الأحمد فى مذهب أحمد » .

وقد كان رحمه الله باراً بوالده على عكس ما كان من أخيه أبى القاسم الذى لم تكن طريقته مع والده مرضية .

وذكر سبطه أن ابن الجوزى كان له من البنات : رابعة ، وشرف النساء ، وزينب ، وجوهرة ، وستُّ العلماء الصغرى وستُّ العلماء الكبرى [(١)] .

□ **تفرده في فن الوعظ :**

وما أحسن ما قال الحافظ الذهبي عنه : « كان رأساً فى التذكير بلا مدافعة ، يقول النظم الرائق ، والنثر الفائق بديهاً ، ويُسهِبُ ، ويُعجِبُ ، ويُطرِبُ ، ويُطنِبُ ، لم يأت قبله ولا بعده مثله ، فهو حامل لواء الوعظ والقيم بفنونه ، مع الشكل الحسن ، والصوت الطيِّب ، والوقع فى النفوس

(١) مرآة الزمان (٨ / ٥٠٣) وذيل الروضتين لأبى شامة (٢٦) .

وحسن السيرة .. »[1] ا . هـ وقال أيضاً : « وما أظن الزمان يسمح بمثله .. »[2] ا .هـ .

وقال الحافظ ابن رجب : « وحاصل الأمر : أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير ، ولم يسمع بمثلها ، وكانت عظيمة النفع يتذكر بها الغافلون ، ويتعلم منها الجاهلون ، ويتوب فيها المذنبون ، ويسلم فيها المشركون ... » ا . هـ[3] .

□ مصنفاته وآثاره:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى « أجوبته المصرية » : « كان الشيخ أبو الفرج متفنناً كثير التصانيف ، له مصنفات فى أمور كثيرة عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف ، ورأيت له بعد ذلك مالم أره .. » ا . هـ[4] .

وقال الذهبى بعد أن ذكر عدداً من كتبه : « وما علمت أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل »[5] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٦٧) .
(٢) سير اعلام النبلاء (٢١ / ٣٨٤) .
(٣) ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤١٠) .
(٤) ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤١٥) والتاج المكلل (٧٠) .
(٥) تذكرة الحفاظ (١٣٤٤) .

وقد ألّف الأستاذ الفاضل عبد الحميد العلوجى كتاباً فى مصنفاته طبع ببغداد سنة ١٩٦٥ . وتتبع أسماءها ونسخها والمطبوع منها ورتبها على حروف المعجم . فليرجع إليها من يريد مع العلم بأن هناك كتباً كثيرة طبعت من المخطوطات التى ذكرها العلوجى .

□ **وفاته :**

توفى ليلة الجمعة ١٢ رمضان سنة ٥٩٧ هـ ببغداد ، ودفن بباب حرب (*) .

* * *

(*) للتوسع فى ترجمة الحافظ ابن الجوزى راجع المصادر التالية :

ابن الأثير فى الكامل (١٢ / ٧١) ، وسبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان (٨ / ٤٨١) ، والمنذرى فى التكملة (الترجمة ٦٠٨) ، والبغال فى المشيخة (١٤٠) ، وأبو شامة فى الذيل (٢١) ، وابن الساعى فى الجامع (٩ / ٦٥) ، وابن خلكان فى الوفيات (٣ / ١٤٠) ، والعبر للذهبى (٤ / ٢٩٧) ، ودول الإسلام (٢ / ٧٩) ، وتذكرة الحفاظ (٤ / ١٣٤٢) ، وسير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٦٥) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣ / ٢٨) ، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ٣٩٩) ، والجزرى فى غاية النهاية (١ / ٣٧٥) ، والتاج المكلل لصديق حسن خان (٧٠) ، ومختصر طبقات الحنابلة لابن شطى ص (٤٢) .

تَرْجَمَةُ الْوَلَدِ «الْمُوصَى إِلَيهِ»
أَبُو الْقَاسِمِ بَدْرُ الدِّيْنِ عَلِيِّ بْنُ الْجُوزِيّ

☐ **اسمه ونسبه ومولده :**

بدر الدين أبو القاسم على ابن الشيخ الإمام أبى الفرج عبد الرحمٰن بن على بن محمد بن على بن الجوزى البكرى البغدادى الناسخ .

ولد فى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة[1] .

أى قبل ولادة أخيه يوسف محيى الدين بحوالى ثلاثين عاماً .

☐ **سماعه للعلم وتلاميذه :**

سمع من أبى الفتح البَطِّى ، ويحيى بن ثابت ، وأبى زُرْعَة ، وأحمد بن المُقَرَّب ، والوزير ابن هُبيرة ، وشُهدة .

حَدَّثَ عنه السَّيف ، وعز الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الغنى المقدسى ، والتقى بن الواسطى ، والكمال على بن وضّاح ، وأبو الفرج بن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٢) .

الزَّين ، وأبو العباس الفارُوثيُّ ، وشمس الدين محمد بن هُبيرة نزيل بلبيس ، وبالإجازة أبو نصر بن الشِّيرازيّ ، والقاضى الحنبلىُّ .

قال ابن نقطة : هو صحيح السماع ، ثقة ، كثير المحفوظ ، حَسَن الإيراد سمع صحيح الإسماعيلى من يحيى بن ثابت [1] .

□ نشأته وسيرته مع أبيه الإمام ابن الجوزى :

الذى يستعرض سيرته مع أبيه يستطيع أن يتعرف ويجيب على هذا السؤال وهو : لِمَ نصح ابن الجوزى هذا الولد ؟ .

مع أن الحافظ ابن الجوزى رحمه الله يقول فى مقدمة الرسالة أنه لما رأى منه نوع توان عن طلب العلم كتب له هذه الرسالة ليحثه بها ويدفعه إلى الأمام ومن خلال كلام أهل العلم عنه يتضح لنا الصورة التالية من سيرة أبى القاسم مع أبيه الإمام ابن الجوزى رحمه الله .

○ أن هذا الولد كان فى مُبْتَدأ صباه طيباً حسناً حتى وصفه ابن النجار بقوله : « وعظ فى صباه » [2] وقال عنه الذهبى : « عمل الوعظ وقتاً ثم ترك وكان كثير النوادر ، حلو الدعابة » [3] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٣) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٣) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٢) .

وهذا يدل على أن نشأته ومبتدأ صباه كان مثل سيرة أبيه وسيرة أخيه يوسف محيي الدين .

○ ثم إنه فى الفترة ما قبل مولد أخيه يوسف محيى الدين الذى ولد سنة ٥٨٠ هـ لزم البطالة وترك الوعظ واشتغل بما لا يجوز . يؤكد هذا قول الحافظ ابن الجوزى فى النصيحة « ... فلم يبق من الذكور سوى ولدى أبى القاسم ، فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح وأن يبلغ به المنى والمناجح ، ثم رأيت منه نوع توان عن الجد فى طلب العلم ، فكتبت له هذه الرسالة ... » ا. هـ .

○ ولعله بعد أن نصحه أبوه بهذه الوصية الرائعة وتأدية واجب النصح تجاه ابنه الوحيد فى هذه الفترة عملاً بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ ... ﴾ الآية [التحريم: ٦]

لم ينتصح ولم يستجب مما كان سبباً فى هجر والده له ومقاطعته إياه ، ومن هذه الأشياء التي جعلت والده يصل معه إلى هذا الحد اشتغاله بما لا يجوز وأنه كان يصاحب البطالين والمفسدين وميوله إلى اللهو والخلاعة .

قال ابن النجار : « وكان كثير الميل إلى اللهو والخلاعة ، فترك الوعظ واشتغل بما لا يجوز وصاحب المفسدين » ا . هـ[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٣) .

يؤكد هذا ما يلمحه القارىء من خلال قراءته للرسالة ونهيه إياه عن هذه الأشياء .

○ ولعل الذى يؤثر فى النفس ونحن نتحدث عن سيرة هذا الابن مع أبيه الذى يقول عنه الحافظ الذهبى : « وما أظن الزمان يسمح بمثله » ما جاء عن عقوق ذلك الابن مع أبيه الذى تراه فى هذه النَّصيحة خائفاً وجلاً على ابنه من النار ومن عذاب الجحيم بل تراه يخاف عليه أن يترك فضيلة من الفضائل ومع ذلك نال من أبيه وكان عاقاً له حتى أنه أثناء محنته وزمن المحنة وغيرها كان ألباً عليه وتسلط على كتبه بواسط فباعها بأبخس الثمن كما حكى ذلك سبط ابن الجوزى أبو المظفر عن جده بقوله : « خلَّف من الولد عليًّا ، وهو الذى أخذ مصنفات والده وباعها بيع العبيد ، ولِمَنْ يزيد ، ولما أحدر والده إلى واسط ، تحيل على الكتب بالليل وأخذ منها ما أراد ، وباعها ولا بثمن المداد ، وكان أبوه قد هجره منذ سنين ، فلما امتحن صار ألباً عليه » ا . هـ [1] .

وقال ابن النجار : « سمعت أباه يقول : إنى لأدعو عليه كل ليلة وقت السَّحَر » ا . هـ [2] .

وقد أشار الحافظ الذهبى إلى ذلك أيضاً بقوله : « وينال من أبيه وربما غلَّ من كتبه » [3] .

(١) مرآة الزمان (٨ / ٥٠٢ ــ ٥٠٣) والسير (٢١ / ٣٨٤) .
(٢) السِّير (٢٢ / ٣٥٣) .
(٣) السِّير (٢٢ / ٣٥٢) .

○ وقد عوض الله الحافظ ابن الجوزى عن هذا الابن بابنه البار الصاحب العلامة أستاذ دار الخلافة محيى الدين يوسف .

قال عنه ابن السباعي : « وهو من العلماء الأفاضل ، والكبراء الأماثل ، أحد أعلام العلم ومشاهير الفضل . ظهرت عليه آثار العناية الإلهية ، منذ كان طفلاً . فعنى به والده وأسمعه الحديث ودرَّبه من صغره في الوعظ وبورك له في ذلك وصار له قبول تام ، وبانت عليه آثار السعادة » ا . هـ [1]

○ حتى أن الشيخ ابن الجوزى رحمه الله لما نالته محنة فى أواخر عمره ، ووشوا به إلى الخليفة الناصر ، كان السبب فى خلاص الشيخ هذا الابن البار فإنه نشأ واشتغل ، وعمل فى هذه المدة الوعظ وهو صبى ، وتوصل حتى شفعت أم الخليفة ، وأطلقت الشيخ وأتى إليه ابنه يوسف فخرج [2] .

حتى أن الحافظ ابن الجوزى كان وله من العمر الثمانين عاماً يشارك هذا الابن الصغير الطلب فما رد الشيخ من واسط حتى قرأ هو وابنه بتلقينه بالعشر على ابن الباقلاني [2] ..

وقد أحب الشيخ ابنه يوسف حباً جماً حتى ذكر عنه أنه قال : « قرأت بواسط مُدَّة مقامى بها كل يوم خَتْمة ، ما قرأت فيها سورة يوسف من

---

(1) ذيل طبقات الحنابلة (٢ / ٢٥٨ ، ٢٥٩) .
(2) سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٧٧) .

حزنى على ولدى يوسف »[1] وقد ألَّف كتاباً فى الوعظ له أسماه « المجالس اليوسفية »[2] .

○ ولا يفوتنا أن نذكر بعضاً من الجوانب الحسنة فى ترجمة هذا الابن العاق لوالده والذى لم يستجب لهذه النصيحة الذهبية والتى انتفع بها أخاه يوسف .

قال الحافظ الذهبى فى ترجمة أبى القاسم على : « الشيخ الفاضل المسند ... كان كثير النوادر ، حلو الدعابة ... ، وكان متعففاً يخدم نفسه » وقال ابن كثير : « كان شيخاً لطيفاً ظريفاً »[3] .

وأشار ابن النجار إلى أنه كان يكتب فى اليوم عشرة كراريس .

وقد صلى على أبيه اتفاقاً كما ذكر ذلك سبط ابن الجوزى .

فنسأل الله العظيم أن يكون هذا الابن قد تاب قبل موته مما جرى له مع أبيه ذلك الإمام العالم واعظ الآفاق شيخ الإسلام ، مفخرة العراق جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى رحمه الله ورضى عنه وأسكنه بجواره .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤٢٧) .

(٢) مختصر طبقات الحنابلة لابن شطى ص (٤٦) .

(٣) البداية والنهاية (١٣ / ١٣٦) .

□ **وفاته:**

مات أبو القاسم على فى سَلْخ رمضان سنة ثلاثين وست مائة [١] .

□ **تنبيه:**

جاء على غلاف طبعة السُّنة المحمدية ضمن مجموع من دفائن الكنوز بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقى وكذا طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة التى طبعت بعناية الشيخ محب الدين الخطيب « هذه النصيحة :

نصح بها ولده المكنى : أبا القاسم

المولودسنة ٥٨٠ هـ

والمتوفي مقتولاً فى وقعة التَّتار ببغداد سنة ٦٥٦ هـ »

وقد تقدم بما فيه كفاية أن الذى قتل فى وقعة التَّتار مع أبنائه الثَّلاثة هو يوسف محيى الدين . قال الحافظ ابن رجب : « وكانت خاتمة سعادته الشَّهادة رضى الله عنه . قال الشيخ عبد الصمد بن أبى الجيش : بلغنى عن الشيخ محمد بن سكران الزاهد المشهور ، أنه قال : « رأيت أستاذ الدَّار ابن الجوزى فى النَّوم ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : كَفَّرت ذُنُوبنا سُيُوفهم ، رضى الله عنه » [٢] .

---

(١) السير (٢٢ / ٣) وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية فى وفيات سنة ٦٣٠ هـ .

(٢) ذيل طبقات الحنابلة (٢ / ٢٦٠) .

(*) للتوسع فى ترجمة أبى القاسم على ابن الشيخ الإمام أبى الفرج بن الجوزى راجع : مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى (٨ / ٦٧٨ ، ٦٧٩) ، والتكملة للمنذرى=

فأبو القاسم على توفى سنة ٦٣٠ هـ فى رمضان والمتوفى مقتولاً فى وقعة التتار إنما هو أخاه يوسف محيي الدين كما تقدم فتنبه لهذا الخطأ .

* * *

=(٣ / الترجمة ٢٤٨٩) ، والعبر للحافظ الذهبى (٥ / ١٢٠) ، وسير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٥٢) ، والبداية والنهاية (١٣ / ١٣٦) ، وشذرات الذهب (٥ / ١٣٧) .

لفتة الكبد إلى

نصيحة الولد

مُقَدِّمَةُ ٱلْمُصَنِّفِ
فِي ٱلسَّبَبِ ٱلْبَاعِثِ عَلَى كِتَابَةِ ٱلْوَصِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحَمدُ لله الذى أنشأ الأَب الأَكبر من تُراب ، وأَخرج ذريته من الترائب والأصلاب ، وعضد العشائر بالقرابة والأنساب ، وأَنْعم علىَّ بالعلم وعِرْفَانِ الصواب ، وأَحْسنَ تربيتى فى الصِّبَىٰ وحفظنى فى الشَّباب ، ورزقنى ذرية أرجو بوجودهم وفور الثَّواب ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤٠ ، ٤١]

أما بعد : فَإِنِّى لما عرفت شرف النِّكاح وطلب الأولاد (١) ، ختمت ختمة (٢) ، وسأَلْتُ الله تعالىٰ أَن يرزقنى عشرة أولاد ، فرزقنيهم ، فكانوا

---

(١) ذكر الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٧٥)مصنفاً لابن الجوزى أسماه « الحث على طلب الولد »نسأل الله الذرية الصالحة .

(٢) **فائدة** : اعلم رحمنى الله وإياك أَن الدُّعاء عند ختم القرآن كان من فِعْلِ سلفنا الصالح رضوان الله عليهم فمن ذلك ما جاء عن أنس رضى الله عنه : « أَنَّه كَانَ إِذَا خَتَم القُرآن جَمَعَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فَدَعَا لَهُمْ » رواه الدارمي (٣٤٧٤) ورواه ابن أبى داود بإسنادين صحيحين كما قال الإمام الورع النووى فى الأذكار=

خمسة ذكور وخمس إناث ، فمات من الإناث اثنتان ومن الذكور أربعة [1] ، فلم يَبْقَ من الذكور سوى ولدى أبى القاسم [2] ، فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح ، وأنْ يبلغ به المُنَى والمَنَاجِح ، ثم رأيت منه نوع تَوانٍ عن الجد فى طلب العلم ، فكتبت له هذه الرسالة

=ص (١٩١) وقال الحافظ ابن حجر : « هذا موقوف صحيح » كما فى الفتوحات الربانية (٣ / ٣٤٤) .

(١) وهنا اشكالان يجب توضيحها وهما :

الأول : ـــ أن الحافظ ابن الجوزى رحمه الله خلّف ولدين بعده وهما يوسف محيى الدين المولود سنة ٥٨٠ هـ والمتوفى سنة ٦٥٦ هـ مقتولاً قتله هولاكو عند احتلاله بغداد وتدميره لها والثانى أبو القاسم على المولود سنة ٥٥١ هـ والمتوفى سنة ٦٣٠ هـ والذى عناه ابن الجوزى بهذه النصيحة .

الثانى : ـــ أن ابن الجوزى أنجب أكثر من خمس بنات فإن سبطه أبا المظفر ذكر له ست بنات لاخمساً كما تقدم فى المقدمة .

ويمكن توجيه هذين الإشكالين من خلال تواريخ الوفاة : فنقول : إن الحال هذه التى ذكرها ابن الجوزى كانت حال كتابته هذه الرسالة وأن هذا قبل ولادة ابنه يوسف محيى الدين سنة ٥٨٠ هـ وبعد وفاة ولده الأكبر أبى بكر عبد العزيز المتوفى سنة ٥٥٤ هـ ولعل له أولاداً آخرين غير يوسف هذا .

وأيضا يرتفع بهذا الإشكال الثانى فيقال فيه مثلما قيل فى الأول أنه أنجب بنتاً أخرى بعد كتابة هذه الرسالة .

(٢) هو أبو القاسم بدر الدين على النّاسخ تقدمت ترجمته وقد كان عاقاً لوالده وكانت طريقته غير مرضية وهجره أبوه سنين وتوفى سنة ٦٣٠ هـ راجع ترجمته فى مقدمة هذا الكتاب .

أَحُثُّه بها وأُحرّكه على سلوك طريقى فى كَسْبِ العلم ، وأدلُّه على الالتجاء إلى الموفق سبحانه وتعالى ، مع علمى بأنّه لا خاذل لمن وفق ، ولا مرشد لمن أضل ، لكن قد قال تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر : ٤] وقال : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[الأعلى : ٩] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

فصـــل

تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيبٌ بَيْنَ يَدَيْ هَذِهِ ٱلْوَصِيَّةِ ٱلنَّافِعَةِ

اعلم يا بنى ـــ وفقك الله للصواب ـــ أنَّه لم يتميز الآدمى بالعقل إلَّا ليعمل بمقتضاهُ ، فاستَحْضِـرْ عقلك ، وأَعمِل فكرك ،واخْلُ بنفسك ، تعلم بالدليل أنَّك مخلوق مكلَّف ، وأنَّ عليك فرائض أنت مُطَالب بها ، وأنَّ الملكين يُحْصِيانِ ألفاظك ونظراتك ، وأن أَنْفَاسَ الحيِّ خُطَاه إلى أجله ، ومقدار اللَّبث فى الدنيا قليل ، والحبس فى القبور طويل ، والعذاب على موافقة الهوىٰ وَبِيل .

فأَيْنَ لذَّة أمس ؟ رحلت وأبقت ندماً .

وأَيْنَ شهوة النَّفس ؟ كم نكست رأساً ، وأَزَلَّت قدماً .

وما سَعِدَ مَنْ سَعِدَ إلَّا بخلاف هواه ، ولا شقى من شقى إلَّا بإيثار دنياه ، فاعتبِر بِمَنْ مضى من الملوك والزهاد أين لذة هؤلاء ، وأين تعب أُولئك ؟ .

بَقِى الثواب الجزيل والذكر الجميل للصالحين ، والقَالَةُ القبيحة

والعقاب الوبيل للعاصين ؛ وكأنَّه مَا جَاع مَنْ جَاع ولا شَبع مَنْ شَبع ، والكسل عن الفضائل بئس الرفيق ، وحب الراحة يورث من الندم ما يُرْبى على كل لذَّة ، فانتبِه واتعب لنفسك .

واعلم أنَّ أدَاء الفرائض واجتناب المحارم لاَزِمٌ ، فمتى تَعَدَّىٰ الإنسان فالنار النار .

ثمَّ اعلم أنَّ طلب الفضائل نهاية مراد المجتهدين ، ثم الفضائل تتفاوت ، فمن الناس من يرى الفضائل الزهد فى الدنيا ، ومنهم من يراها التَّشاغل بالتَّعبد ، وعلى الحقيقة فليست الفضائل الكاملة إلَّا الجمع بين العلم والعمل ، فإذا حَصَلاَ رفعا صاحبهما إلى تحقيق معرفة الخالق سُبْحانه وتَعَالىٰ ، وَحَرَّكاه إلىٰ محبته وخشيته والشوق إليه ، فتلك الغاية المقصودة ، وعلى قدر أهْلِ العزم تأْتى العزائم ، وليس كل مُرِيدٍ مُرَاداً ، ولا كُلّ طالبٍ واجداً ، ولكن على العبد الاجتهاد ، « **وَكُلٌّ ميسَّر لما خُلِقَ له** »[1] والله المستعان .

* * *

---

(١) هذه الجملة لفظ حديث صحيح ثابت عن النبي ﷺ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخرجه البخارى : كتاب الجنائز (١٣٦٢) : باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله . (١٣٦٢) .

ومسلم : كتاب القدر : باب كيفية خلق الآدمي . (٢٦٤٧) (٦) .

فصـــل

الْوَاجِبَاتُ وَالْفَضَائِلُ وَالْهِمَّةُ الْعَالِيَةُ

وأوَّلُ ما ينبغى النَّظَرَ فيه : معرفة الله تعالىٰ بالدليل ، ومعلوم أنَّ من رأىٰ السَّماءَ مرفوعة ، والأرض موضوعة ، وشاهد الأبنية المحكمة خصوصاً فى جسد نَفْسِهِ ، عَلِمَ أنَّه لابد للصنعَةِ من صَانِعٍ ، وللمبنىٰ من بَانٍ .

ثم يتأمَّل دليل صدق الرسول ﷺ إليه ، وأكبر الدلائل القرآن ، الذى أَعْجَزَ الخلق أَنْ يأْتوا بسورة من مثله ، فإذا ثَبَتَ عنده وجود الخالق جل وعلا وصِدْق الرسول ﷺ ، وَجَبَ تَسْلِيم عَنَانِهِ إلى الشرع ، فمتى لم يفعل دَلَّ على خَلَلٍ فى اعتقاده .

ثم يجب عليه أنْ يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزكاة ــ إن كان له مال ــ والحج وغير ذلك من الواجبات . فإذا عرف قدر الواجب قام به .

فينبغى لذى الهمة أن يترقى إلى الفضائل ، فيتشاغل بحفظ القرآن

وتفسيره وبحديث الرسول ﷺ ، وبمعرفة سيره وسِيَر أصحابه والعلماء بعدهم . ليتخيَّر مرتبة الأعلىٰ فالأعلىٰ .

ولابد من معرفة ما يقيم به لسانه من النحو ومعرفة طرف مستعمل من اللغة .

والفقه أصل العلوم ، والتذكير حَلواؤها وَأعمها نَفْعاً ، وقد رَتَّبْتُ في هذه المذكورات من التَّصانيف ما يُغْنى عن كل ما سبق من تصانيف القُدَماء وغيرها بِحَمْدِ الله ومَنِّه [1] ، فأغنيتك عن تَطَلّب الكتب وجمع الهمم للتصنيف ، وما تقف هِمَّةٌ إلَّا لِخَسَاسَتِهَا ، وإلَّا فمتىٰ عَلَتِ الهمة فلا تَقْنَع بالدُّون .

وقد عرفت بالدليل أنَّ الهمة مولودة مع الآدمى وإنما تقصر بعض الهمم فى بعض الأوقات فإذا حثت سارت . ومتى رأيت فى نفسك عجزاً فسل المنعم ، أوْ كسلاً فالجأ إلى الموفّق ، فلن تنال خيراً إلَّا بطاعته ، ولا يفوتك خير إلَّا بمعصيته ، فَمَن الذى أقبل عليه فلم يَر كل مُراد ؟ وَمَن الذى أُعرض عنه فمضى بفائدة ؟ أو حظى بغرض من أغراضه ؟ أَوَ مَا سَمِعْتَ قول الشاعر [2] :

---

(١) قال الحافظ الذهبى : « وما علمت أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل » تذكره الحافظ (١٣٤٤) .

(٢) الأبيات فى سير أعلام النبلاء (٢١ / ٥٨) منسوبة للمرتضى والد الإمام=

وَاللهِ مَـا جِئْتُكُـمْ زَائِـراً إلَّا وَجدَتُ الأَرْضَ تُطْوىٰ لى
وَلاَ ثَنَيْتُ الْعَزْمَ عَن بَابِكُم إلَّا تَعَثَّـرْتُ بِأَذْيَالِـى

* * *

= أبى الفضائل محمد بن عبدالله بن القاسم بن مظفر الشافعى مع ابدال كلمة (والله) بـ (يَالَيل) .

فصــــل

وَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ

وانظر يا بُنَيَّ : إلى نفسك عند الحدود ، فتلمح كيف حِفْظُكَ لها ، فإنه مَن رَاعىٰ رُوعِيَ ، ومن أُهمَل تُرك . وإنى لأذكر لك بعض أَحْوالى لعلك تَنْظر إلى اجْتِهادى وتسأل الموفق لى : فإنَّ أكْثَر الإنْعَام عَلَيَّ لم يكن بِكَسْبى ، وإنَّما هو من تدبير اللطيف بِى .

○ فَإِنى أذْكُر نفسى ولى همة عالية [1] وأنَا فى المكتب ابن سِت سنين

---

(١) تحدث الحافظ ابن الجوزى عن همته العالية فى مواضع متفرقة من كتابه « صيد الخاطر » ننقل للقارىء الكريم طرفاً منها : قال رحمه الله (٢٣٨) : « ما ابتلى الإنسان قطّ بأعظم من عُلُوِ هِّمتِهِ ، فإن من علت همته يختار المعالى ، وربما لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقىٰ فى عذاب . وإنى أُعطيت من علوّ الهمة طرفاً فأنا به عذاب . ولا أقول : ليته لم يكن ؛ فإنه يحلو العيش بقدر عدم العقل والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل » وقال رحمه الله : (٢٣٩) « ونظرت إلى علوّ همتى فرأيته عجباً ، وذلك أننى أروم من العلم ما أتيقن أنى لا أصل إليه ، لا أننى أُحبّ نيل كل العلوم على اختلاف فنونها ، وأريد استقصاء كل فنّ . وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه » . وقال رحمه الله مصوراً أن هذه الهمة لازمته حال الكبر أيضاً (٢٥٠ ، ٢٥١) : « خُلقَتْ لى همة عالية تطلب =

وأنا قَرِينُ الصبيان الكبار ، قد رُزِقْتُ عَقْلاً وافراً فى الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أنى لعبت فى طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحكت ضحكاً خارجاً[1] .

○ حتى أنِّى كنت ولى سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع ، فلا أتخيَّر حلقة مُشَعْبَذْ ، بل أطلب المُحَدِّث ، فيتحدث بالسِّير فأحفظ جميع ما أسمعه وأذهب إلى البيت فأكتبه . ولقد وفق لى شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله[2] ، وكان يحملنى إلى الشيوخ فأسْمعنى المسند وغيره

= الغايات . بَلَغْتُ الستين وما بلغت ما أمَّلْت ، فأخَذْتُ أسأل الله تطويل العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال ، فأنكرت علىّ العاداتُ وقالت : ما جرت عادة بما تطلب . فقلت : إنما أطلب من قادرٍ على تجاوز العادات » ا . هـ

(١) راجع تقرير هذا الكلام فى البداية والنهاية لابن كثير (١٣ / ٢٩) .

(٢) الإمام المحدث الحافظ ، مفيد العراق أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن على بن عم السَّلاَمِّى البغدادى ولد سنة ٤٦٧ هـ وتوفى سنة ٥٥١ هـ وقد انتفع الحافظ ابن الجوزى فى الحديث بملازمته لهذا الإمام كما أشار إلى ذلك الذهبى فى السير (٢١ / ٣٦٧) بل قرره الحافظ ابن الجوزى نفسه فى كتابه المنتظم (١٠ / ١٦٣) ونقله عنه الذهبى فى الميزان (٢٠ / ٢٦٧) : قال : « كان شيخنا ثقة حافظاً ضابطاً من أهل السنة لا مغمز فيه ، تولَّى تسميعى ، سمعت بقراءته ، « مسند » أحمد والكُتُبَ الكبارَ ، وعنه أُخذتُ علمَ الحديث ، وكان كثيرَ الذكر ، سريع الدمعة » ا . هـ .

راجع ترجمته في : ــ سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٢٦٥) وتذكرة الحفاظ=

من الكتب الكبار ، وأنا لا أعلم ما يُرَاد منى ، وضبط لى مَسْموعاتى إلى أنْ بلغت فناولنى ثَبتهَا ولازَمْتُه ألى أن توفى رحمه الله ، فَنِلْتُ به معرفة الحديث والنقل .

○ ولقد كان الصِّبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا فى زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حجزة من الناس إلى جانب الرقة فأتشاغل بالعلم [1] .

○ ثم أُلْهِمْتُ الزُّهد فسردت الصوم ، وتشاغلت بالتقلل من الطعام

=(٤ / ١٢٨٩) ومناقب أحمد (٥٣٠ ، ٥٣١) ومرآة الزمان (٨ / ١٣٨) وذيل طبقات الحنابلة (١ / ٢٢٥ ــ ٢٢٩) والبداية والنهاية (١٢ / ٢٣٣) .

(١) رحم الله ابن الجوزى فقد كان مجداً فى طلب العلم فى حال الصغر والكبر على حد سواء منكباً على تحصيله لا يضيع شيئاً من وقته يقول عن نفسه أيضاً فى كتابه صيد الخاطر (٢٣٥) : ــ « ولقد كنت فى حلاوة طلبى للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندى أحلى من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو ، كنت فى زمن الصِّبا آخذ معى أرغفة يابسة ، فأُخرج فى طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى ، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكُلّما أكلتُ لقمة شربتُ عليها ، وعين همتى لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأثمر ذلك عندى أنى عرفت بكثرة سماعى لحديث رسول الله ﷺ وأحواله وآدابه وأحوال أصحابه وتابعيهم .. وأثمر ذلك عندى من المعاملة ما لايدرى إلا بالعلم ، حتى إننى أذكر فى زمن الصبوة ووقت الغلمة والغربة قدرتى على أشياء كانت النفس تتوق إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال ، ولم يمنعنى عنها إلا ما أثمر عندى العلم من خوف الله عز وجل » ا . هـ .

وألْزَمْتُ نفسِي الصبر فاستمرت وشمَّرت ولازمت وعَالجْتُ السَّهر ، ولم أقْنع بفنٍّ . من العلوم[1] ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، وأتَّبع الزهاد ، ثم قرأت اللغة .

○ ولم أترك أحداً ممن يَرْوى وَيعِظُ ، ولا غريباً يقدم إلَّا وأحضره ، وأتَخَيّر الفضائل ، وكنت إذا عُرِضَ لى أمران أُقدِّم فى أغلب الأحوال حق الحق .

فأحسنَ تدبيرى وتربيتى ، وأجْرانى على ما هو الأصلح لى ودفع عنى الأعداء والحساد ومن يكيدنى ، وهيَّأ لى أسباب العلم ، وبعث إلىَّ الكُتب من حيث لا أحْتَسِب ، ورَزَقنى الفَهْم وسرعة الحفظ والخط وجَوْدَة التَّصنيف ولم يعوزنى شيئاً من الدنيا ، بل ساق إلىّ من الرِّزق مقدار الكفاية وأزْيد ، ووضع لى من القبول فى قلوب الخلق فوق الحد ، وأوْقَع

---

(١) وقال عن نفسه أيضا فى الصيد (٣٧) : « إنى رجلٌ حبب إلىَّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به ... ثم لم يحبَّب إلىّ فنّ واحد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر همتى فى فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه » . ولقد ظل يطلب العلم فى كل أيام عمره حتى أنه قبل موته بمدة يسيرة قرأ القرآن بالروايات على ابن الباقلانى كما يذكر ذلك الحافظ الذهبى عنه : « وقد قرأ بواسط وهو ابن ثمانين سنة بالعشر على ابن الباقلانى ، وتلا معه ولده يوسف » ا . هـ . ولقد أثرت هذه النشأة التى أُلهم فيها العبادة من صوم وصلاة فى هذا الإمام منذ الصغر يقول عن نفسه (صيد الخاطر ـــ ٧٨) : « كنت فى بداية الصبوة قد أُلهمت طريق الزهاد ، بإدامة الصوم والصلاة ، وحببت إلى الخلوة ، فكنت أجد قلباً طيباً ، وكانت عين بصيرتى حادة ... » ا . هـ .

كلامى فى نفوسهم فلا يرتابون بصحته ، وقد أسلم على يدى نحو من مائتين من أهل الذمة . ولقد تاب فى مجالسى أكثر من مائة ألف ، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يَتَعاناه الجهال[(١)] .

○ ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفَسى من العَدْو لئلا أُسْبَق ، وكنت أصبح وليس لى مأكل وأُمسى وليس لى مأكل ، ما أَذَلَّنى الله لمخلوق قط . ولكنه ساق رزقى لصيانة عِرْضِى . ولو شرحت أحوالى لطال الشرح .

وهاأنا قد ترى ما آلت حالى إليه ، وأنا أجمعه لك فى كلمة واحدة هى قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة : ٢٨٢) .

* * *

(١) قال سبطه أبو المظفر (٨ / ٤٨٢ ـــ مرآة الزمان) : « سمعت جدى يقول : بأصبعى هاتين كتبت ألفى مجلدةٍ ، وتاب على يدىَّ مائة ألفٍ ، وأُسلم على يديَّ عشرون ألفا . وسقطت كلمة عشرون من مطبوعة المرآة واستدركها محقق سير اعلام النبلاء (٢١ / ٣٧٠) » وقال فى المنتظم (١٠ / ٢٣٧) : « وعَظْتُ بالحَلبَة فى رمضان فَقُطِّعَتْ شُعورُ مائة وعشرين نفساً » . وقال فى صيد الخاطر (٤١) : « إنه لا يخلو لى مجلس من خلق لا يحصون ، يبكون ويندمون على ذنوبهم ، ويقوم فى الغالب جماعة يتوبون ويقطعون شعور الصبا ، وربما اتفق خمسون ومائة ... ولقد تاب عندى فى بعض الأيام أكثر من مائة وعمومهم صبيان قد نشئوا على اللعب والانهماك فى المعاصى » وكما يقول الحافظ ابن رجب فى ذيل طبقات الحنابلة (٣ / ٤١٠) « وحاصل الأمر أن مجالسه الوعظية لم يكن لها نظير ، ولم يسمع بمثلها ، وكانت عظيمة النَّفع يتذكر بها الغافلون ، ويتعلم منها الجاهلون ، ويتوب فيها المذنبون ، ويسلم فيها المشركون ... » ا . هـ

فصــــل
حِفْظُ ٱلْأَوْقَاتِ وَاغْتِنَامُ ٱللَّحَظَاتِ

فانتبه يا بنى : لِنَفسِكَ ، واندم على ما مَضَىٰ من تفريطك .. واجتهد فى لحاق الكاملين مادام فى الوقت سَعَة . واستق غُصْنَكَ ، مادامت فيه رُطُوبة واذكر ساعتك التى ضاعت فكفىٰ بها عظة ، ذَهَبَتْ لَذَّةُ الكسل فيها وفَاتت مراتب الفضائل .

وقد كان السلف الصالح رحمهم الله يحبون جمع كل فضيلة ويبكون على فوات واحدة منها .

قال إبْراهِيمُ بْنُ أدْهم[1] رحمه الله : دَخلْنَا عَلَىٰ عَابِدٍ مَرِيضٍ ، وَهُوَ

---

(١) هو الإمام القدوة العارف سيد الزُهَّاد ، أبو إسحاق العجلى ، الخُراساني البَلْخى ، نزيل الشام ولد فى حدود ١٠٠ هـ وتوفى سنة ١٦٢ هـ قال أبو نعيم : سمعتُ سُفيان يقول : « كان إبراهيمُ بن أدهم يشْبه إبراهيم الخليل ولو كان الصحابة ، لكان رجلاً فاضلا » .

ترجمته فى : حلية الأولياء (٧ / ٣٦٧) حتى (٨ / ٥٨) وطبقات الأولياء (٥ / ١٥) وسير أعلام النبلاء (٧ / ٣٨٧) والكامل لابن الأثير (٦ / ٥٦) =

يَنظُر إلىٰ رِجْلَيْهِ وَيَبْكِي ، فَقُلْنَا : مَالَكَ تَبْكِي ؟ فقال : مَا اغْبَرَتَا فى سَبِيل الله .

وبَكَىٰ آخَرُ ، فقالُوا : ما يُبْكِيكَ ؟ فَقَال : عَلَى يَوْمٍ مَضَىٰ مَا صُمْتُه وَعَلىٰ لَيْلَةٍ ذَهَبَتْ مَاقُمْتُها .

واعلم يا بنى: أنَّ الأيام تَبْسُطُ ساعات ، والساعات تَبْسُطُ أنفَاساً ، وكل نَفَس خزانة ، فاحذر أن يذهب نَفَسٌ بغير شيءٍ، فترى فى القيامة خَزَانة فارغة فتندم .

وقد قال رجل لعامر بن عبد قيس[1] : « قِفْ أُكَلِّمْك ، فقال : أمْسِك الشمس » .

= والبداية والنهاية (١٠ / ١٣٥ ــ ١٤٥) وشذرات الذهب (١ / ٢٥٥ ــ ٢٥٦) .

(١) هو الإمام أبو عبد الله ويقال : أبو عمرو التميمى العنبرى ، عامر بن عبد قيس البصرى وصفه الحافظ الذهبى بالقدوة الولى الزاهد وهو من الزهاد الثمانية من التابعين الذين انتهى الزهد إليهم رآه كعب الأحبار فقال : « هذا راهبُ هذه الأمة » قال قتادة : « لما احتضر عامر بكىٰ ، فقيل : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جَزَعاً من الموت ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكن أبكى على ظَمأِ الهواجر وقيام الليل » وقيل : توفى فى زمن معاوية ، راجع ترجمته : فى طبقات ابن سعد (٧ / ١٠٣) والزهد لأحمد (٢١٨) والحلية (٢ / ٨٧) وسير أعلام النبلاء (٤ / ١٥) وزهد الثمانية من التابعين لعلقمة بن مرثد ص (٣٧ : ٤٠) .

وقعد قوم عند معروف رحمه الله[1] فقال : « أَمَا تُرِيدُون أنْ تَقُوموا ، فإن مَلَك الشَّمْسِ يَجُرُّها لا يَفْتُر » . وفي الحديث : « **مَنْ قال سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ بِهَا نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ** »[2] فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل ؟ ! .

---

(١) معروف الكرخي أبو محفوظ البغدادي « علم الزهاد ، بركة العصر » هكذا وصفه الحافظ الذهبي وقد جمع الحافظ ابن الجوزي مناقبه في كتاب وهو مطبوع توفي رحمه الله سنة ٢٠٠ هـ . ووصفه الإمام أحمد بأنه مستجاب الدعوة قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « قلت لأبي ، هل كان مع معروف شيء من العلم ؟ فقال : يا بُني ، كان معه رأس العِلْم ، خشية الله » .

راجع ترجمته في : طبقات الأولياء (٢٨٠ ، ٢٨٥) وطبقات الصوفية (٨٣ ــ ٩٠) وطبقات الحنابلة (١ / ٣٨١ ، ٣٨٩) وصفة الصفوة (٢ / ٧٩ ــ ٨٣) والحلية (٨ / ٣٦٠ ، ٣٦٨) وسير اعلام النبلاء (٠ / ٣٣٩ ــ ٣٤٥) .

(٢) **حَدِيثٌ صَحِيحٌ** : أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠ / ٢٩٠) والترمذي (٣٤٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٢٧) وابن حبان (٢٣٣٥ ــ موارد) والحاكم في المستدرك (١ / ٥٠١ ، ٥٠٢) وأبو يعلى (٢٢٣٣) من حديث جابر رضي الله عنه .

وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح غريب »وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قالا . وللحديث شواهد من حديث عبد الله بن عمرو ومعاذ بن سهل ذكرها الألباني في الصحيحة (٦٤) .

○ **وقد كان السلف** يغتنمون اللّحظات ، فكان كهمس[1] رحمه الله يَخْتم القُرْآنَ كُلّ يوم وَلَيْلة ثلاث مرات .

---

(١) كَهْمَس بن الحسن التميمى ، الحنفى البصرى ، العابد أبو الحسن من كبار الثقات وكان من العباد الصالحين توفى سنة ١٤٩ هـ ومما جاء فى كثرة عبادته أنه كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعةفإذا ملّ ، قال : « قومى يا مأوى كُلّ سوء ، فو الله ما رضيتُك لله ساعة »راجع ترجمته فى : تذكرة الحفاظ (١ / ١٧٤) وسير أعلام النبلاء (٦ / ٣١٦) وخلاصة تهذيب الكمال (٣٢٢) وتهذيب االتهذيب (٥٤٠٨) وشذرات الذهب (١ / ٢٢٥) .

فائدة : صَحّ عن النبي ﷺ : أنه نهى أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث كما فى حديث عبد الله بن عمرو وفيه فقال رسول الله ﷺ : « اقرأ القرآن فى كل شهر » فقال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، فمازال حتى قال : « **فى ثلاث** » رواه البخارى (١٩٧٨) وأيضاً قال لعبد الله بن عمرو : « **اقرأه فى سبع ولا تزد على ذلك** » رواه البخاري (٥٠٥٤) ومسلم (١١٥٩) (١٨٤) .

وأما ما جاء عن كثير من سلف هذه الأمة الكرام من قراءتهم للقرآن فى أقل من ثلاث فلا نملك إلا أن نقول كما قال الحافظ الناقد الجليل الذهبى رحمه الله ورضى عنه عندما أورد فى السير فى ترجمة وكيع بن الجراح الإمام المشهور (٩ / ١٤٣) قول يحيى بن أكثم : « صحبت وكيعاً فى الحضر والسفر وكان يصوم الدهر ويختم القرآن كل ليلة » قلت (القائل الحافظ الذهبى) : « هذه عبادة يخضع لها ، ولكنّهما من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة ، فقد صحّ نهيُه عليه السلام عن صوم الدّهر وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن فى أقل من ثلاث ، والدين يسر ، ومتابعة السنة أولى ، فرضى الله عن وكيع ، وأين مثلُ وكيع ؟ » ا . هـ قلت : رحم الله الحافظ الذهبى فقد كان ناقداً بارعاً يستحق أن يطلق عليه « إمام =

وكان أربعون رجلاً من السَّلف يصلون الصُّبح بوضُوء العشاء[1] .

وكانت رابعة العدوية[2] تُحْيِي اللَّيل كله ، فإذا طلع الفجر هَجَعَتْ هَجْعَةً خفيفة ثم قامت فزعة وقالت لنفسها : « النَّوْمُ فِي القَبْرِ طَوِيلٌ » .

* * *

= النَّاقدين المُنْصفين » فرحم الله هذا الإمام وحشرنا وإياه فى زمرة أهل الحديث فيعلم الله أنى أحبه فى الله كثيراً .

(١) رحم الله ابن الجوزى إذ يقول : « لله درّ أقوام هجروا لذيذ المنام وتنصلوا لما نصبوا له الأقدام ، وانتصبوا للنَّصب فى الظلام ، يطلبون نصيباً من الإنعام ، إذا جن الليل سهروا وإذا النهار جاء اعتبروا ، وإذا نظروا فى عيوبهم استغفروا ، وإذا تفكروا فى ذنوبهم بكوا وانكسروا .. يا منازل الأحباب أين ساكنوك ؟ يا بقاع الإخلاص أين قاطنوك ؟ يا مواطن الأبرار أين عامروك ؟ يا مواضع التهجد أين زائروك ؟ .

خلت والله الديار ، وباد القوم ، وارتحل أرباب السهر وبقى أهل النوم . واستبدل الزمان أكل الشهوات بالصوم » . « اليواقيت الجوزية ص (٢٨ ، ٢٩) » .

(٢) رابعة العدوية أم الخير بنت اسماعيل البصرية الصالحة المستورة الزاهدة العابدة ، الخاشعة قيل عاشت ثمانين سنة توفيت سنة ١٨٠ هـ والأثر أورده الحافظ الذهبى عنها من طريق ابن أبى الدنيا حدثنا محمد بن الحسين ، حدثنى عبيس بن ميمون العطار ، حدثتنى عبدة بنت أبى شوال وكانت تخدم رابعة العدوية قالت : « كانت رابعة تصلى الليل كله ، فإذا طلع الفجر ، هجعت هجعة حتى يسفر الفجر ، فكنت أسمعها تقول : يا نفس كم تنامين وإلى كم تقومين ، يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا ليوم النشور » أورد الحافظ ابن الجوزى فى كتابه (المدهش ص ٢١١) : أن رابعة العابدة كانت تقوم من أول الليل وتقول :

قام المحب إلى المؤمل قومة كاد الفؤاد من السرور يطير=

=فإذا انقضى الليل صاحت واحرباه ، واسلباه .

ذهب الظلام بأنسه وبألفه ليت الظلام بأنسه يتجدد

تنبيه مهم :

رابعة العدوية تلك المرأة الصالحة العابدة الزاهدة التى ظلمها الناس فمنهم من نسبها إلى الحلول والعياذ بالله ومنهم من نسبها إلى الإباحة ومنهم من أنكر وجودها بالكلية وكل هذا ظلم وإجحاف لها فقد حكى عنها الأئمة الكبار أمثال سفيان الثورى وشعبة ما يدل على بطلان ما قيل عنها قال الحافظ الذهبى فى السير(٨ / ٢٤٢ ، ٢٤٣) : قال ابو سعيد بن الأعرابى : أما رابعة فقد حمل الناس عنها حكمة كثيرة ، وحكى عنها سفيان وشعبة وغيرهما مما يدلُّ على بطلان ما قيل عنها وقد تمثلته بهذا :

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فى الفُؤَادِ مُحَدِّثى وَأَبحتُ جِسْمِى مَنْ أَرَادَ جُلوسى

فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت ، وإلى الإباحة بتمامه . قلت (القائل الحافظ الذهبى) : فهذا غُلُوٌّ وجهل ، ولعل من نسبها إلى ذلك مُباحىٌّ حلولى ليحتج بها على كفره كاحتجاجهم بخبر « كنت سمعه الذى يسمع به » ا . هـ .

قلت : ومن مخازى بعض أهل عصرنا من الصوفية الحلوليين احتجاجهم ونشرهم لما يقال عنها من أشعار مكذوبة ومختلفة وحكايات باطلة ليحتجوا بها على ضلالهم المبين نعوذ بالله من الخذلان ! حتى إن بعضهم ألف كتاباً فى ذلك وفى سيرتها أورد فيه من الضلال ما تقشعر منه أبدان المسلم الموحد المتَّبع .

وأسخف من هؤلاء أولئك الذين صوروا حياتها فى فيلم وأنها كانت راقصة فى أول حياتها وغير ذلك من الحكايات الباطلة ليفتنوا الناس عن دينهم أضلهم الله وأخزاهم بفنِّهم الممقوت الماجن المشوه للحقائق . =

....

○ وأما من ينكر وجودها بالكلية فنقول له تأمل يا هذا وانتبه لهذه المصادر التى ترجمت لها وهى من أئمة أعلام فى هذا الشأن أمثال الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٤٢) والعبر (١ / ٢٧٨) وابن خلكان فى وفيات الأعيان (٣ /٢١٥) وابن العماد في شذرات الذهب (١ / ١٩٣) وابن كثير فى البداية والنهاية (١٠ / ١٨٦) والخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد (٢ / ٤٠) وابن الجوزى فى صفة الصفوة (٤/ ١٧ ـــ ١٩) .

حتى أن الحافظ ابن الجوزى أفرد مناقبها فى كتاب كما ذكر ذلك الذهبى فى السير (٨ / ٢٤٢) ومن طريف ما جاء عن الحافظ ابن الجوزى أنه سمىَّ ابنته الكبرى ـــ وأم سبطه أبو المظفر صاحب مرآة الزمان ـــ باسم رابعة وتراه فى معظم كتبه الوعظية يورد أخبارها وأحوالها .

فصل

بماذا تشترى هذه الحياة الأبدية

ومن تَفَكَّر فى الدنيا قبل أَنْ يوجد رَأَىٰ مدة طويلة ، فَإِذا تَفَكَّر فيها بعد أَنْ يخرج منها رَأَى مدة طويلة ، وعَلِمَ أَنَّ اللبث فى القبور طويل ، فإذا تفكَّر فى يوم القيامة عَلِمَ أَنَّه خمسون أَلف سنة ، فإذا تفكَّر فى اللَّبث فى الجنة أو النار علم أَنَّه لا نهاية له ، فإذا عاد إِلىٰ النَّظر فى مقدار بقائِه فى الدنيا فرضنا ستين سنة مثلاً[1] فإنَّه يمضى منها ثلاثون سنة فى

---

(١) فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أَعمارُ أُمَّتى ما بينَ السِّتِّينَ إلى السَّبعينَ ، وأَقلُّهُمْ مَنْ يَجُوزُ ذلكَ** » رواه الترمذى (٣٥٥٠) وابن ماجة (٤٢٣٦) وابن حبان (٢٤٦٧ — موارد) والحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٢٧) وقال الترمذى : « حسن غريب » وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ، وأقره الذهبى . وقال الحافظ فى الفتح (١١ / ٢٤٠) : « إسناده حسن » والحق أن الحديث حسن لذاته صحيح لغيره فإن له طريقاً آخر بإسناد حسن أيضاً عند الترمذى (٢٣٣١) وقال : « حسن غريب » .

* وقال ابن الجوزى عن هذا الحديث : « إنما طالت أعمار الأوائل لطول البادية ، فلما شارف الركب بلد الإقامة . قيل : حُثُّوا المطى » راجع ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤٢١) .
=

النوم ، ونحو من خمس عشرة فى الصبى ، فإذا حسب الباقى كان أَكْثَره الشهوات والمطاعم والمكاسب ، فَإِذَا خَلَصَ ما للآخرة وجد فيه من الرِّياء والغفلة كثيراً ، فَبِماذَا تُشْتَرىٰ الحياة الأَبَدِية وإِنَّمَا الثمن هذه السَّاعات ؟ .

* * *

= * قال بعض الحكماء : « الأسنان أربعة من الطفولية ، ثم الشباب ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة وهى آخر الأسنان ، وغالب ما يكون ما بين الستين والسبعين فحينئذ يظهر ضعف القوة بالنقص والانحطاط ، فينبغى له الإقبال على الآخرة بالكلية لاستحالة أن يرجع إلى الحالة الأولى من النشاط والقوة » ا . هـ وذكره الحافظ فى الفتح (١١ / ٢٤٠) .

قلت : وتأمل قول النبي ﷺ : « أعذرَ الله إلى امرىء أَخَّـرَ أجـله حتى بَلَّغَهُ ستين سنة » رواه البخارى (٦٤١٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً .

فصـــل

الإِنْتِبَاهُ بَعْدَ ٱلْغَفْلَةِ

ولا يؤيسك يا بني من الخير ما مضى من التفريط ، فإنه قد انتبه خلق كثير بعد الرقاد الطويل .

فقد حدثنى الشيخ أبو حكيم[1] رحمه الله ، قال : « كُنْتُ فى صَبْوتى مُتَشاغِلاً بالبَطَالة غير مُلْتفت إلى العلم ، فأَحْضرنى أبى أبو عبد الله رحمه الله تعالى . وقال لى : يا بنى ، لَسْتُ أَبْقَىٰ لك أبداً ، فَخُذْ عِشْرين ديناراً وافتح لك دكان خَبَّاز وتَكسَب ، فقلت له : ما هذا

---

(١) هو العلامة القدوة أبو حكيم ، إبراهيم بن دينار النَّهْرَوانىُّ الحنبلى أحد أئمة بغداد إمام زاهد ورع خيِّر حليم ، إليه المنتهى فى علم الفرائض أنشأ بباب الأَزَج مدرسة ، وانقطع بها يتعبد وكان يؤثر الخمول والقنوع ويقتات من الخياطة ، فيأخذ على القميص حبتين فقط ، ولقد جهد جماعة فى إغضابه ، فعجزوا ، وكان يخدم الزَّمْنى والعجائز بوجه طلق ، وسماعه صحيح توفى سنة ٥٥٦ هـ قاله الحافظ الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٩٦) وراجع ترجمته فى : المنتظم (١٠ / ٢٠١ ، ٢٠٢) لابن الجوزى وذيل طبقات الحنابلة (١ / ٢٣١ ــ ٢٤١) وشذرات الذهب (٤ / ١٧٦) والبداية والنهاية (١٢ / ٢٤٥) .

الكلام ؟ قال : فافتح دكان بَزَّازٍ فقلت : كيف تقول لى هذا وأنا ابن قاضى القضاء عبدالله الدَّامغانى [1] قال : فما أَرَاكَ تَطْلُبُ العلم ، فقلت : أذْكُر لى الدَّرس السَّاعة ، فذكر لى ، فأقبلت على التَّشاغل بالعلم . فعند ذلك أقْبَلْتُ على الاشتغال بالعلم ، واجتهدت ففتح الله تعالى » .

وحكى لى بعض أصحاب أبى محمد الحلوانى [2] رحمه الله قال : « مات أبى وأنا ابْنُ إحْدَىٰ وعِشْرين سنة ، وكنت مَوْصُوفاً بالبَطَالة ، فأتيت أَتَقَاضَىٰ بعض سكان دار قد وَرِثْتُها فسمعتهم يقولون : جَاءَ

---

(١) هو العلامة البارع ، مفتى العراق ، قاضى القضاة ، أبو عبدالله ، محمد بن على بن محمد بن حسن بن عبد الوهاب بن حسويه الدَّامغانى الحنفى « نسبة إلى دامغان وهى بلدة كبيرة بين الرى ونيسابور قال الذهبى : كان ذا جلالة وحشمةٍ وافرة إلى الغاية ، يُنَظَّر بالقاضى أبى يوسف فى زمانه . وفى أولاده أئمة وقضاة » ا . هـ .

توفى سنة ٤٧٨ هـ وصلى عليه ولده قاضى القضاه أبو الحسن . تراجع ترجمته فى : تاريخ بغداد (٣ / ١٠٩) والبداية والنهاية (١٢ / ١٢٩) وشذرات الذهب (٣ / ٣٦٢) والفوائد البهية (١٨٢ ــ ١٨٣) والكامل (١٠ / ١٤٦) وسير أعلام النبلاء (١٨ / ٤٨٥) والعبر (٣ / ٢٩٢) .

(٢) الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن على بن محمد الحلوانى الفقيه الإمام أبو محمد بن أبى الفتح قال المنذرى : كان من شيوخ الحنابلة وله معرفة بالفقه والتفسير والحديث وقال ابن رجب : رأيت بخطه ما يقتضى : أن له تعليقة فى مسائل الخلاف كبيرة وله تفسير القرآن فى واحد وأربعين جزءاً حَدَّث به . راجع ترجمته فى ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ٢٢١) .

المُدْبِرُ ، أى الرِّبيط . فقلت لنفسى يقال عنى هذا ؟ فَجِئْتُ إلى والدتى فقلت : إذا أُردتِ طَلَبِي فَاطْلُبِينِي مِنْ مسجد الشيخ أبى الخطاب [1] . ولازمته فما خرجت إلَّا إلى القضاء ، فَصِرْتُ قاضياً مدة » . (قلت) : « ورأَيْتهُ أنا وهو يُفْتى ويُنَاظر » .

* * *

---

(١) هو الشيخ الإمام العلامة الورع شيخ الحنابلة أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن حسن بن حسن العِراقى ، الكَلْوَذانى ثم البغدادى توفى سنة ٥١٠ هـ قال الحافظ الذهبي : « كان أبو الخطاب من محاسن العلماء ، خيِّراً صادقاً ، حسن الخُلُق ، حُلْوَ النادرةِ ، من أذكياء الرِّجال ، روى الكثير ، وطلب الحديث وكتبه » ا . هـ وقال ابن رجب فى الذيل (١ / ١٢٠) : « كان أبو الخطاب فقيهاً عظيماً ، كثير التحقق وله من التحقيق والتدقيق الحسن فى مسائل الفقه وأصوله شيء كثير جداً وله مسائل ينفرد بها عن الأصحاب .. » ثم ذكر منها أشياء كثيرة .. .

وراجع ترجمته فى : سير أعلام النبلاء (٣٤٨ / ١٩) والمنتظم لابن الجوزى (٩ / ١٩٠ ــ ١٩٣) والكامل (١٠ / ٥٢٤) العبر (٢١/٤) ومرآة الزمان (٨ / ٤١ ــ ٤٢) والبداية والنهاية (١٢ / ١٨٠) وذيل طبقات الحنابلة (١ / ١١٦ ــ ١٢٧) وشذرات الذهب (٤ / ٢٧ ــ ٢٨) .

فصل
مَنهج تربوي في اليوم والليلة

○ **فالزم نفسك يا بني** الانتباه عند طلوع الفجر ولا تتحدث بِحَديثِ الدُّنيا ، فقد كان السلف الصالح رحمهم الله لا يتكلمون فى ذلك الوقت بشىء من أمور الدنيا (1) .

---

(1) وقد كان هذا دأبهم وهذه هى مسيرتهم فى ذلك الوقت . فهذا حسان بن عطية أحد ثقات التابعين : « كان إذا صلى العصر يجلس فى المسجد يذكر الله تعالى حتى تغيب الشمس » السير (٥ / ٤٦٧) .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية كما يذكر عنه تلميذه البار الحافظ ابن القيم فى الوابل الصيب (٣٩ ، ٤٠) « أنَّه حضره مرّةً صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ثم التفت إلىَّ وقال : « هذه غدوتى ولو لم أتغد الغذاء سقطت قوتى » .

قلت : ومن أهم ما يفعله المسلم بعد صلاة الفجر هو التوجه إلى الله بكليته بذكره والتوجه إليه بالأذكار التى شرعت أول النهار فيجعلها ورداً له لا يخل بها أبداً ثم يزيد عليها ما شاء الله من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس . راجع : طريق الهجرتين لابن القيم ص (٢٧١ ، ٢٧٢) وكتابنا الصَّغير « أذكار الصباح والمساء » .

○ وقُل عند انتباهك من النوم : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِى أَحْيَانِى بَعْدَ مَا أَمَاتَنِى وَإِلَيْهِ النُّشُور »[1] ، « الْحَمْدُ للهِ الَّذِى يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيم »[2] .

○ ثم قم إلى الطهارة واركع سُنَّة الفجر[3] ، واخرج إلى المسجد

---

(١) رواه البخارى : كتاب الدعوات باب ما يقول إذا نام (٦٣١٢) فى حديث حذيفة رضى الله عنه . ورواه البخارى : كتاب الدعوات : باب ما يقول إذا أصبح (٦٣٢٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه ورواه مسلم : كتاب الذكر والدعاء .. باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣) (٥٩) من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه . قال الحافظ فى الفتح (١١ / ١١٤) : وإليه النشور : « أى البعث يوم القيامة والإحياء بعد الإماتة ، يقال نشر الله الموتى أى أحياهم فحيوا » ا . هـ .

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده (١٧٩١) والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٨٥٣ ، ٨٥٤) وابن السنى (١٢) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٦٢ — موارد) . والحاكم (١ / ٥٤٨) كلهم من طريق أبى الزبير عن جابر مطولاً ومرفوعاً .. وقال الهيثمى فى المجمع بعد أن عزاه لأبى يعلى (١٠ / ١٢٠) : ورجاله رجال الصحيح غير ابراهيم بن الحجاج الشامى وهو ثقة » .

وقال المنذرى فى الترغيب (١ / ٤١٦) : « أخرجه أبو يعلى بإسناد صحيح » والحديث صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى . وقال الحافظ فى نتائج الأفكار ص (١٩٨) : « حديث حسن غريب » .

(٣) فعن عائشة رضى الله عنها قالت : « لم يكن النبى ﷺ على شىء من النوافل أَشَدَّ تعاهداً منه على ركعتى الفجر » رواه البخارى (١١٦٩) ومسلم=

خاشعاً وقل في طريقك : « اللَّهُمَّ إنِّي أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى هذا ، أنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تجيرني من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[1] .

○ **واقصد** الصلاة إلى يمين الإمام[2] ، فإذا فرغت من الصلاة فقل : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى

=(٧٢٤) (٩٤) مكرر وعنها قالت أن النبي ﷺ قال : « ركعتا الفجر خَيْرٌ من الدنيا وما فيها » رواه مسلم (٧٢٥) (٩٦) وفى رواية له (٧٢٥) (٩٧) : « لهما أحب إلى من الدنيا جميعا » .

(١) **حديث ضعيف** :

أخرجه أحمد (٣ / ٢١) وابن ماجه (٧٧٨) وابن السنى (٨٣) . وقال البوصيرى فى الزوائد : « إسناده مسلسل بالضعفاء » والحديث ضعفه أيضاً المنذرى فى الترغيب وشيخ الإسلام فى التوسل والوسيلة وراجع أيضاً التوسل للألبانى ص (٩٣ : ٩٩) والسلسلة الضعيفة (٢٤) فإنه أجاد فيها فى بيان علل الحديث ويغنى عن هذا الحديث ما رواه مسلم (٧٦٣) (١٩١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى مبيته فى بيت خالته ميمونة رضى الله عنها ، ذكر الحديث فى تهجد النبى ﷺ قال : فأذن المؤذن ، يعنى الصبح ، فخرج إلى الصلاة وهو يقول : « اللَّهُمَّ اجعل فى قلبى نوراً ، وفى لسانى نوراً ، واجعل فى سمعى نوراً واجعل فى بصرى نُوراً ، واجعل من خلفى نُوراً ومن أمامى نُوراً واجعل من فوقى نُوراً ومن تحتى نُوراً ، اللهم أعطنى نوراً » .

(٢) بوب الإمام البخارى فى صحيحه كتاب الأذان ـــ ٧٩ ـــ باب ميمنة المسجد والإمام قال الحافظ فى الفتح (٢ / ٢١٣) : « وكأنه أشار إلى ما أخرجه=

ويميت ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير » عشر مرات [1] . « ثم سَبِّح عَشْراً ، واحْمِد عَشْراً ، وكَبِّر عَشْراً » [2] ، واقرأ آيةَ الكُرْسى [3] ،

=النسائى بإسناد صحيح عن البراء قال : كنا إذا صلَّينا خلف النبى ﷺ أحببنا أنْ نكون عن يمينه » ولأبى داود بإسناد حسن عن عائشة مرفوعاً : « إن الله وملائكته يصلُّون على ميامن الصفوف » ا . هـ .

قلت : لقد زهد كثير من الناس فى هذه السنن والفضائل حتى رأيت بعينى كثيراً من إخواننا يفضلون اليسار على اليمن لوجود المراوح الكهربائية ويتركون الصف الأيمن فسبحان الله ! على من يضيع على نفسه خيراً كثيراً من ثناء الله عليه فى الملأ الأعلى واستغفار الملائكة له .

(١) **حديث صحيح** : رواه أحمد (٥ / ٤١٥) من حديث أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه وصححه الألبانى لطرقه وشواهده وراجع المصادر التالية : صحيح الترغيب (٦٥٦) والسلسلة الصحيحة (١١٣ ، ١١٤) .

(٢) **حديث صحيح** : أخرجه أبو داود (٥٠٦٥) والترمذى (٣٤٠٧) والنسائى (٣ / ٧٤) من حديث عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما وصحح إسناده النووى فى الأذكار ص (١٤٢) والحافظ كما فى الفتوحات الربانية (١ / ٥١)

(٣) **حديث صحيح** : رواه ابن السنى (١٢) من حديث محمد بن حمير عن محمد بن زياد الألهانى عن أبى أمامة ، مرفوعاً بلفظ : « من قرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة لم يحل بينه وبين دخول الجنة إلا الموت » وقال المنذرى فى الترغيب (٢ / ٢٦١) : « رواه النسائى والطبرانى بأسانيد أحدها صحيح ، وقال شيخنا أبو الحسن : هو على شرط البخارى وابن حبان فى كتاب الصلاة وصححه ، وزاد الطبرانى فى بعض طرقه : و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وإسناده بهذه الزيادة جيد أيضاً » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ١٠٢) : « رواه الطبراني فى الكبير والأوسط بأسانيد وأحدها جيد » ا . هـ . =

واسْأَلِ الله سبحانه قَبُول الصلاة ، فَإِنْ صَحَّ فاجلس ذاكراً الله تعالى إلى أَنْ تَطْلُع الشمس وترتفع ، ثم صَلِّ وتَرْكع ما كُتِبَ لك ، وإن كان ثمان ركعات فهو حسن [1] .

=والحديث عند النسائى فى عمل اليوم والليلة (١٠٠) وللحديث شاهد من حديث المغيرة بن شعبة أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣ / ١٢١) وإسناده حسن . وقد أدخل هذا الحديث الحافظ ابن الجوزى فى الموضوعات فأخطأ وراجع فى الكلام على الحديث : زاد المعاد (١ / ٣٠٣ ، ٣٠٤) وتحفة الذاكرين للشوكاني ص (١١٧) والسلسلة الصحيحة للألبانى (٩٧٢) .

فائدة : قال شيخ الإسلام ابن القيم فى زاد المعاد (١ / ٣٠٤) : « بلغنى عن شيخنا أبى العباس ابن تيمية قدَّس الله روحه أنه قال : « ما تركتُها عقيب كُلِّ صلاة » .

(١) لحديث أم هانىء فاختة بنت أبى طالب رضى الله عنها قالت : ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل ، فلما فرغ من غُسْله ، صلى ثمانى ركعات وذلك ضحى » رواه البخارى (١١٧٦) ومسلم (٣٣٦) (٨٢) وفى رواية لمسلم (٣٣٦) (٧١) « ثم صلى ثمان ركعات سبحة الضحى » قال النووى فى شرح مسلم (٤ / ٢٩) هذا اللفظ فيه فائدة لطيفة وهى أن صلاة الضحى ثمان ركعات وموضوع الدلالة كونها قالت سبحة الضحى وهذا تصريح بأن هذا سنة مقررة معروفة بخلاف الرواية الأخرى « صلى ثمانى ركعات وذلك ضحى » ا . هـ .

فائدة : اعلم أن صلاة الضحى هى صلاة الأوابين أى الرجاعين من الغفلة إلى الحضور ومن الذنب إلى التوبة وأن أقلها ركعتان وأكملها ثمان ركعات وأوسطها أربع ركعات أو ست . والأفضل أن تصلى عند اشتداد الحر وارتفاع الضحى ويجوز أن تصلى من ارتفاع الشمس إلى زوالها . راجع زاد المعاد لابن القيم (١ / ٣٤١ : ٣٦٠) .

فصل
العلم أفضل من كل نافلة

○ فإذا أعدت درسك إلى وقت الضُّحى الأَعْلَىٰ فصلِّ الضحى ثمانى ركعات ، ثم تَشَاغل بمطالعة أو نسخ إلى وقت العصر ، ثم عُدْ إلى درسك من بعد العصر إلى وقت المغرب (١) ، وصل بعد المغرب ركعتين بجزأين ، فإذا صليت العشاء فَعُدْ على دروسك (٢) ثم اضطجع على

(١) اعلم رحمنى الله وإياك أن اختلاف الأوراد سواء كانت دعاء أو ذكرا أو قراءة للقرآن أو علماً نافعاً أو استغفاراً فى الليل أو النهار تختلف باختلاف الأحوال قال فى مختصر منهاج القاصدين ص (٨٢) : « اعلم أن السالك لطريق الآخرة لا يخلو من ستة أحوال : إما أن يكون عابداً ، أو عالماً أو متعلماً ، أو والياً ، أو محترفاً أو مستغرقا بمحبة الله عز وجل مشغولاً به عن غيره » ا . هـ ثم أخذ يوضح وينظم لكل واحد حسب حاله .. فراجعه فإنه مهم جداً وليعلم أن الحال هنا فى نصيحة ابن الجوزى لابنه ينطبق على طالب العلم الذى تفرغ له وهيئت له السبل والله أعلم .

(٢) قال الحافظ ابن الجوزى فى كتابه « الحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ » : ص (٣٥) « فى بيان طريق أحكام المحفوظ : الطريق فى أحكامه كثرة الإعادة والناس يتفاوتون فى ذلك فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار ومنهم من لا يحفظ إلا بعد التكرار الكثير . فينبغى للإنسان أن يعيد بعد الحفظ ،=

شقك الأيمن [1] ، فسبِّح ثلاثاً وثلاثين ، واحمد ثلاثاً وثلاثين وكبر أربعاً وثلاثين [2] ، وقل : « اللهم قنى عذابك يوم تجمع عبادك » [3] .

=ليثبت معه المحفوظ . وقد قال النبي ﷺ : « تعاهدوا القرآن فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النَّعم فى عقلها » ا . هـ .

قلت الحديث : متفق عليه أخرجه البخارى (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١) (٢٣١) من حديث أبى هريرة .

النَّعم : نفائس الإبل . تفصِّيا : أى تفلتاً وتخلصاً .

(١) راجع زاد المعاد (٤ / ٢٣٩) : « فصل فى تدبيره ﷺ لأمر النوم واليقظة » وفى صحيح البخارى (٦٣١٥) ومسلم (٢٧١٠) (٥٦) .

من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : اللهم إنى أُسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأْت ظهرى إليك ، رغبةً ورهبةً إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت . واجعلهن آخر كلامك ، فإن مت من ليلتك ، مت على الفطرة » .

(٢) لما رواه البخارى (٦٣١٨) ومسلم (٢٧٢٧) عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له ولفاطمة رضى الله عنهما : « إذا أويتما إلى فراشكما أو أخذتما مضاجعكما فكبِّرا ثلاثاً وثلاثين ، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين » وفى رواية : « التسبيح أربعاً وثلاثين » وفي رواية : « التكبير أربعاً وثلاثين » .

قال على : فما تركته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ، قيل له : ولا ليلة صفين ؟ قال : ولا ليلة صفين » .

(٣) **حديث صحيح** : أخرجه أبو داود (٥٠٤٥) وابن السنى (٧٣٣٧) ، والنسائى فى عمل اليوم والليلة (٤٥٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٩٤)=

○ وإذا فتحت عينيك من النوم فاعلم أنَّ النفس قد أخذت حظها[1] ، فقم إلى الوضوء وصل فى ظلام الليل ما أمكن ، واستفتح بركعتين خفيفتين ، ثم بعدهما ركعتين بجزءين من القرآن . ثم تعود إلى درس العلم ، فإنَّ العلم أفضل من كل نافلة[2] .

=من حديث حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك . ثلاث مرَّات » وقد حسنه الحافظ فى نتائج الأفكار (ص ١٩٣) وفى الباب عن البراء وحذيفة وابن مسعود ولذلك فالحديث يصير بهذه الشواهد صحيحاً والله أعلم .

(١) وأما هديه ﷺ فى يقظته ، فكان يستيقظ إذا صاح الصَّارخُ وهو الديك فيحمد الله تعالى ويكبره ، ويهلله ويدعوه ، ثم يستاك ، ثم يقوم إلى وضوئه ثم يقف للصلاة بين يدى ربه ، مناجياً له بكلامه ، مثنياً عليه راجياً له ، راغباً راهباً ، فأَىُّ حفظ لصحة البدن والقلب ، والروح والقوى ، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا . راجع زاد المعاد (٤ / ٢٤٦) .

(٢) فقد نصَّ على ذلك جمع كثير من الأئمة مثل الزهرى وسفيان الثورى وأبو حنيفة والشافعى وغيرهم وراجع شرح حديث أبى الدرداء لابن رجب ص (٩٦ : ١٠٣) وقد حقق هذه المسألة تحقيقاً علمياً منصفاً ينبغى لطالب العلم أن يتفهمه ويتخذه منهجاً له فى حال طلبه للعلم .

قال رحمه الله « هذه مسألة مختلف فيها : هل طلب العلم أفضل أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر ؟ فأما من كان مخلصاً لله فى طلب العلم وذهنه جيد فالعلم أولى ، ولكن مع حظ من صلاة وتعبد ، فإن رأيته مجداً فى طلب العلم لاحظ له فى القربات فهذا كسلان مهين وليس هو بصادق فى حسن نيته ، وأما من كان طلبه الحديث والفقه غية ومحبة نفسانية فالعبادة فى حقه أفضل بل ما بينهما أفعل تفضيل وهذا تقسيم فى الجملة فقَلَّ ــ والله ــ من رأيته مخلصاً فى طلب العلم .. » ا . هـ .

فصل

الحذر من الآفات والعوائق

وعليك بالعزلة فهي أَصْلُ كل خير [1] ، واحذر من جليس السُّوء ، وليكن جلساؤُك الكتب والنَّظر في سير السلف ، ولا تشتغل بعلم حتى

---

(١) بوب الإمام البخارى فى صحيحه : باب العزلة راحة من خلاط السوء . واعلم أن اختلاف الناس فى هذا هو كاختلافهم فى فضيلة النكاح والعزوبة وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص .

ومن أهم ما ينبغى التنبيه عليه أن عزلة الجاهل وبال عليه وقد سئل بعض العلماء : ما تقول فى عزلة الجاهل ؟ فقال خبال ووبال ، فقيل له : فالعالم ؟ فقال مالك ولها دعها ، معها حذاؤها وسقاؤها ، ترد الماء ، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها . وقد صنَّف الإمام الخطابى رحمه الله كتاباً عظيماً فى العزلة ذكر فى آخره (ص ١١٧ ، ١١٨) ملخص الحق فى أمر العزلة فقال : « والطريقة المثلى فى هذا الباب أن لا تمتنع من حق يلزمك للناس وإن لم يطالبوك به ، وأن لا تنهمك لهم فى باطل لا يجب عليك وإن دعوك إليه ، فإن من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه ومن انحل فى الباطل جمد عن الحق ، فكن مع الناس فى الخير وكن بمعزل عنهم فى الشر ، وتوخ أن تكون فيهم شاهدا كغائب وعالماً كجاهل » ا . هـ .

تُحْكِمَ ما قبله ، وتلمَّح سير الكاملين فى العلم والعمل ، ولا تَقْنَعْ بالدُّون ، فقد قال الشاعر :

وَلَمْ أَرَ فِي عُيوبِ النَّاسِ شَيْئاً كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَىٰ التَّمَامِ

واعلم أن العلم يرفع الأَراذِلَ فقد كان خلق كثير من العلماء لا نسب لهم يُذْكَر ، ولا صورة تُسْتَحْسَنُ .

وكان عطاء بن أبى رباح [1] أسود اللون مستوحش الخلقة ، وجاء إليه سليمان بن عبد الملك [2] - وهو خليفة ، ومعه ولداه - فجلسوا

---

(١) عطاء بن أبى رباح أسلمَ قال الذهبى : « الإمام شيخ الإسلام ، مفتى الحرم ، أبو محمد القرشى مولاهم المكى ، يقال ولاؤه لبنى جُمَح كان من مُوَلَّدى الجَنَد ونشأ بمكة ، ولد فى أثناء خلافة عثمان » ا . هـ .

وكان عطاء أسود أعور أفطس أشل أعرج ثم عمى وكان ثقة فقيهاً ، عالماً كثير الحديث وكان من أعلم الناس بالمناسك ترجمته في : طبقات ابن سعد (٥ / ٤٦٧) وتهذيب الكمال (٩٣٨) والعبر (١ / ١٤١) والسير (٥ / ٧٨) والبداية والنهاية (٩ / ٣٠٦) والعقد الثمين (٦ / ٨٤) وشذرات الذهب (١ / ١٤٧) .

والأثر أخرجه الخطيب البغدادى فى الفقيه والمتفقه (١ / ٣١) وبوب على ذلك بقوله « ذكر من ارتفع من العبيد حتى جلس مجالس الملوك » .

(٢) سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أميَّة الخليفة أبو أيوب القرشى الأموى بويع بعد أخيه الوليد سنة ست وتسعين مات سنة ٩٩ هـ وخلافته سنتان وتسعة أشهر وعشرون يوماً قال ابن سيرين : « يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز » . راجع=

يسألونه عن المناسك ، فحدَّثهم وهو مُعْرِضٌ عنهم بوجهه ، فقال الخليفة لولديه : « قُومَا ولا تَنِيَا وَلاَ تَكَاسَلا فى طَلَبِ الْعِلْم ، فَمَا أَنْسَىٰ ذُلَّنا بَيْنَ يَدَى هَذَا الْعَبْدِ الأَسْود » .

وكان الحسن مولى[1] - أى مملوكاً - وابن سيرين[2]

=ترجمته فى : تاريخ الطبرى (٦ / ٥٤٦) والكامل لابن الاثير (٥ / ٣٧) ووفيات الأعيان (٢ / ٤٢٠ ، ٤٢٧) والعبر (١ / ١١٥ ، ١١٨) والبداية والنهاية (٩ / ١٨٣) وشذرات الذهب (١ / ١١٦) وسير أعلام النبلاء (٥ / ١١١) .

(١) هو الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى أبو سعيد مولى زيد بن ثابت قدوة العلماء الزهاد وأحد الأعلام من التابعين مات سنة ١١٠ هـ .

قال أيوب السختيانى : « لو رأيت الحسن لقُلْتَ : إنك لم تجالس فقيهاً قط » وقال أبو جعفر الباقر : « ذاك الذى يشبِهُ كلامه كلام الأنبياء » ترجمته فى : طبقات ابن سعد (٧ / ١٥٦) والحلية (٢ / ١٣١) والزهد لأحمد (٢ / ٢٢٥) وسير اعلام النبلاء (٤ / ٥٦٣) وتذكرة الحفاظ (١ / ٦٦) وقد أفرد ابن الجوزى لهذا الإمام كتاباً فى سيرته ومناقبه وهو مطبوع متداول .

(٢) محمد بن سيرين هو الإمام شيخ الإسلام أبو بكر الأنصارى الأنسِيّ البصرىّ مولى أنس بن مالك الصحابى خادم رسول الله ﷺ توفى سنة ١١٠ هـ .

قال أبو عوانة : رأيت محمد بن سيرين فى السوق ، فما رآه أحدٌ إلا ذكر الله » راجع ترجمته فى : طبقات ابن سعد (٧ / ١٩٣) والحلية(٢ / ٢٦٣) وتاريخ بغداد (٥ / ٣٣١) وتذكرة الحفاظ (١ / ٧٣) والسير (٤ / ٦٠٦) والعبر (١ / ١٣٥) ومرآة الجنان (١ / ٢٣٢) والبداية والنهاية (٩ / ٢٦٧) وشذرات الذهب (١ / ١٣٨) .

ومكحول [1] وخلق كثير . وإنّما شرُّفوا بالعلم والتّقوى .

* * *

---

(١) مكحول : عالم أهل الشام وهو مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل بن سند بن شروان بن يزدك بن يغوث بن كسرى . وأن محكولاً سبى من كابل واختلف في ولائه فقيل : مولى امرأة هُذلية ، وهو أصحّ . وعداده فى أوساط التابعين توفى سنة ١١٢ هـ وقيل ١١٣ هـ ، ١١٤ هـ قال ابو حاتم : « ما بالشام أحد أفقه من مكحول » راجع ترجمته فى : طبقات ابن سعد (٧ / ٤٥٣) وحلية الأولياء (٥ / ١٧٧) وتهذيب الأسماء واللغات (٢ / ١١٣ ، ١١٤) وسير أعلام النبلاء (٥ / ١٥٥) وتذكرة الحفاظ (١ / ١٠٧) والعبر (١ / ١٤٠) والبداية والنهاية (٩ / ٣٠٥) وحسن المحاضرة (١ / ١١٩) .

فصــل
الْعِفَّةُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ

واجتهد يا بنى فى صيانة عِرْضك من التَّعرض لطلب الدنيا والذل لأهلها ، واقنع تعز[1] : فقد قيل : « مَنْ قَنَعَ بِالْخُبْزِ والْبَقْلِ لَمْ يَسْتَعْبِدْه أَحَدٌ » .

ومَرَّ أَعْرابى عَلَى البَصْرة فَقال : « مَنْ سَيِّدُ هَذِهِ البَلْدَةِ ؟ قيل لَهُ : الْحَسَنُ البَصْرى ، قَالَ : وَبِمَ سَادَهُم ؟ قَالُوا : لأنَّه اسْتَغْنَى عَنْ دُنْياهُم وافْتَقَروا إِلَى عِلْمِهِ »[2] .

---

(١) قال الحافظ ابن رجب الحنبلى فى شرح حديث أبى الدرداء ص (١٥٠ : ١٥٢) : « إن من نشر علمه للناس وتكلم عليهم ينبغى أن يكون ورعاً عما فى أيديهم غير طامع فى شىء من أموالهم ولأرزاقهم ولا اجتلاب قلوبهم إليه ، وإنما ينشر علمه لله ويتعفف عن الناس بالورع ... فالحرص على الدنيا والطمع فيها قبيح وهو من العلماء أقبح » ا . هـ .

(٢) القصة أوردها ابن رجب فى شرح حديث أبى الدرداء « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً » ص (١٥٤) . ورحم الله الحسن إذ يقول : إن لكل شىء شيناً وشين العلم الطمع » وما أحسن ما قال الإمام الخطابى فى كتابه العزلة ص (٢٣٥)=

واعلم يا بنى أن أبى كان موسراً ، وخلَّف ألوفاً من المال ، فلما بَلَغْتُ دفعوا لى عشرين ديناراً ودَارَيْنِ ، وقالوا لى : هذه التركة كلها ، فأخذت الدَّنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعت الدارين ، وأنفقت ثمنها فى طلب العلم ، ولم يبق لى شىء من المال [1] ، وماذَلَّ أبوك فى طلب العلم قط ، ولا خرج يطوف فى البلدان كغيره من الوعاظ . ولابعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً قط . وأموره تجرى على السداد ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣]

* * *

=عن الحسن البصرى : قال رحمه الله : « فمن له اليوم بمثل الحسن رحمة الله عليه واخلاص نصيحته وبليغ موعظته ، ولو صلحت منا الضمائر وصَفَت السرائر لوقعت النصيحة موقعها والله يصلحنا ويصلح أئمتنا فإن فسادهم بذنوبنا » ا . هـ .

(١) روى الخطيب فى الفقية والمتفقه (٢ / ٩٤) بإسناد صحيح عن الشافعى رحمه الله قال : « يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال : أولها طول العمر ، والثانية : سعة اليد ، والثالثة : الذكاء » . قال الخطيب البغدادى رحمه الله : أما طول العمر فإنما يقصد به دوام الملازمة للعلم وأراد بسعة اليد ألا يشتغل بالإحتراف وطلب التكسب ، فإذا استعمل القناعة أغنته عن كثير من ذلك .. وإن رزقه الله تعالى الذكاء فهو أمارة سعادته وسرعة بلوغه إلى بغيته » .

فصل

مَتَىٰ صَحَّتِ ٱلتَّقْوَىٰ رَأَيْتَ كُلَّ ٱلْخَيْرِ

يا بني ، ومتى صَحَّت التقوى رأيت كل خير ، والمُتقى لا يرائى الخلق ولا يتعرض لما يُؤذى دينه ، ومن حفظ حدود الله حفظه الله ، قال رسول الله ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما : « احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك »[1] .

واعلم يا بني أنَّ يونس عليه السلام لما كانت ذخيرته خيراً نجا بها من الشدة .

---

(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ : أخرجه أحمد (١ / ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧) والترمذى (٢٥١٦) وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » وهو كما قال : وقد صححه الألبانى فى تخريج السنة لابن أبى عاصم (٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨) وللحديث طرق كثيرة وقد أفرد الحافظ ابن رجب فى شرح هذا الحديث مصنفاً رائعاً سماه : « نور الاقتباس فى مشكاة وصية النبى ﷺ لابن عباس » .

قال الحافظ ابن الجوزى ــ صاحب هذه الوصية ــ فى كتابه صيد الخاطر : « تدبرت هذا الحديث فأدهشنى وكدت أطيش » ، ثم قال : « فوا أسفاً من الجهل بهذا الحديث ، وقلة الفهم لمعناه » ا . هـ .

فعليك بمراجعة شرح هذا الحديث فإنه تضمَّن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلّها .

قال الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات :١٤٣ ، ١٤٤] وأما فرعون فلما لما تكن ذخيرته خيراً لم يجد فى شدته مخلصاً فقيل له : ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس :٩١] فاجعل لك ذخائر خير من تقوىٰ تجد تأثيرها .

وقد جاء فى الحديث : « **مَا مِنْ شَابٌ اتَّقَى اللهَ فِي شَبَابِهِ إِلَّا رفعهُ الله فى كِبَرِهِ** »[1] .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف :٢٢] .

وقال : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠]

واعلم أنَّ أوفى الذَّخائر : غَضُّ الطرف عن محرم ، وإمْساكٌ للسان عن فضول كلمة ، ومراعاة لحدٌ ، وإيثار الله سبحانه وتعالى على هوى النفس ، وقد عرفت حديث الثلاثة الذين دخلوا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة فقال أحدهم : « اللَّهُمَّ إنَّه كَانَ لِي أَبوانِ وَأَوْلاد ، فَكُنْتُ أَقِفُ بِالحَلِيب عَلَى أبوى أَسْقِيهمَا قبْلَ أَوْلاَدِى ، فَإِنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ فَافْرُجْ عَنَّا ، فَانْفَرَجَ ثُلُثُ الصَّخْرَةِ ، وقال الآخر : اللَّهُمَّ إِنِّى اسْتَأْجَرْتُ أَجِيراً فَتَسَخَّطَ أَجْرَه ، فَاتجرت به ، فَجَاءَ يَوْماً فقال : أَلاَ تَخَافُ الله وَتُعْطِينِى أُجْرَتِى ؟ فَقُلْتُ انْطَلِق إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا ، فَإِنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ

(١) راجع حلية الأولياء (١٣٩/٤) بنحوه .

فَافْرُجْ عَنَّا فَانْفَرَجَ ثُلُثَا الصَّخرة . فقال الآخَرُ : اللَّهُمَّ إنِّى عَلِقتُ بِنْتَ عَمٍّ لِى فَلَمَّا دَنَوْتُ مِنهَا قالت : اتَّقِ اللهَ وَلا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلَّا بِحَقِّه ، فَقُمْتُ عَنْهَا . فَإنْ كُنتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ لِأَجْلِكَ فَافرجْ عَنَّا ، فَرُفِعَتْ الصَّخْرَة وَخَرَجُوا »[1] .

ورُؤِى سفيان الثورى[2] رحمةُ الله عَلَيْه فى المنام ، فقيل له : « مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ قال : مَا كَانَ إلَّا وُضِعْتُ فِى اللَّحد فَإذا أنَا بَيْنَ يَدَىْ رَبِّ الْعَالمين ، فَدَخلت فَإذا أَنَا بقائل يقول : سفيان ؟ قلت : سفيان . قال : تَذْكُر يَوْماً آثرتَ اللهَ عَلَىٰ هَوَاكَ ؟ قُلْتُ : نَعَم ، فَأَخَذَتْنِى صَوانى النِّثَارِ مِنَ الْجَنَّةِ » .

* * *

---

(١) أخرجه البخارى : كتاب الإجارة : باب مَنِ استأجَرَ أجيراً فتَركَ أجرَه ... (٢٢٧٢) ومسلم : كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ، والتوسل بصالح الأعمال . (٢٧٤٣) (١٠٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٢) سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى أبو عبد الله الكوفى . ثقة حافظ فقيه عابد إمام حجة مات سنة ٢٦١ هـ وكان رحمه الله أزهد الناس فى الدنيا فى زمانه حتى كان يتعرى بمجلسه عن الدنيا ويقال أنه لم يكن فى زمانه من هو أخوف لله منه ولا من هيبة الله فى صدره اعظم منه قال الحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ (١ / ٢٠٦) : « مناقب هذا الإمام فى مجلد لابن الجوزى وقد اختصرته وسقت جملة حسنة من ذلك فى تاريخى » ا . هـ . وترجمة هذا الإمام الجليل تجدها فى الحلية فى حوالى مائة وثمانين صفحة (٦ / ٣٥٦) حتى (٧ / ١٤٤) وفى سير أعلام النبلاء (٧ / ٢٢٩) وفى تاريخ بغداد (٩ / ١٥١ ــ ١٧٤) .

فصل
من سير السلف الصالح

وينبغى أن تَسمو همتك إلى الكمال ، فإن خَلقا وقفوا مع الزهد ، وخلقا تشاغلوا بالعلم ، وندر أقوام جمعوا بين العلم الكامل والعمل الكامل .

واعلم أنى قد تَصَفَّحْتُ التابعين ومَنْ بعدهم فما رأيت أَحْظَى بالكمال من أربعة أنفس : سعيد بن المُسَيَّب [(١)] ، والحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم [(٢)] ، وقد كانوا رجالاً . وإنما

---

(١) سعيد بن المسيب أبو محمد القرشى المخزومى الإمام العلم عالم أهل المدينة وسيِّدُ التابعين في زمانه توفى سنة ٧٣ هـ .

قال الحافظ الذهبى فى السير (٤ / ٢١٩) : « وكان مِمَّن برز فى العِلْم والعَمل » راجع ترجمته فى الحلية (٢ / ١٦١) ، وسير أعلام النبلاء (٤ / ٢١٧ : ٢٤٦) ، وتذكرة الحفاظ (١ / ٥١)وطبقات ابن سعد (٥ / ١١٩)وقد أفرد لمناقبه وسيرته ابن الجوزى كتاباً فى جزأين كما فى سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣٦٩) وفى الذيل (١ / ٤١٨) « مجلد » .

(٢) الإمام أحمد بن حنبل ذلك الإمام الربانى والصدِّيق الثانى الثابت عند المحن والشدائد امتحن رحمه الله فى فتنة خلق القرآن أيام الخليفة المأمون فثبت ولم يجب=

كانت لهم هِممٌ ضَعُفَتْ عندنا ، وقد كان فى السلف خلق كثير لهم همم عالية ، فإذا أردت أن تنظر إلى أحوالهم فانظر فى كتاب « صفة الصفوة »[1] إن شئت تأمل أخبار سعيد والحسن وسفيان وأحمد رضى الله عنهم[2] فقد جمعت لكل واحد منهما كتاباً .

* * *

=ونال بذلك الرفعة فى الدنيا والآخرة وقد أفرد ابن الجوزى فى مناقبه وسيرته مصنفاً جيداً فليراجع .

(١) طبع هذا الكتاب : الجزء الأول مطبعة الأصيل بحلب سنة ١٣٨٩ هـ والثانى بمطبعة النهضة الجديدة بمصر سنة ١٣٩٠ هـ والثالث بمطبعة وكالة الصحف بمصر سنة ١٣٩٣ هـ والرابع بمطبعة دار الشعب بمصر سنة ١٣٩٣ هـ وتوالت الطبعات .

(٢) وقد وصفهم أيضاً الحافظ ابن رجب فى « شرح حديث أبى الدرداء فيمن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً » ص (٥٢ ، ٥٣) « بالعلماء الربانيين علماء الآخرة » .

فصل
الحفظ رأس مالك

وقد علمت يا بني أنّي قد صنفت مائة كتاب[1] ، فمنها « التفسير الكبير » عشرون مجلداً[2] ، و « التاريخ » عشرون مجلداً ، و « تهذيب

(١) لعل هذا الكلام حتى كتابته رحمه الله هذه السطور وإلا فإنه صنَّف أكثر من ذلك وقد عدَّ له شيخ الإسلام ابن تيمية أكثر من ألف مصنف وقال الذهبى : « وما علمت أحداً من العلماء صنَّف ما صنَّف هذا الرجل » وراجع أسماء مصنفاته فى سير أعلام النبلاء وذيل طبقات الحنابلة وقد ألف الأستاذ عبد الحميد العلوجى كتاباً أسماه مؤلفات ابن الجوزى طبع شركة دار الجمهورية ببغداد سنة ١٣٩٥ هـ فليراجع مع العلم بأن هناك كتباً كثيرة طبعت بعد صدور هذا الكتاب والله تعالى يوفق المسلمين لإخراج هذا التراث العظيم .

(٢) قال الذهبى فى السير (٢١ / ٣٦٨) : « صنف فى التفسير المغنى » — كبير ، ثم اختصره فى أربع مجلداتٍ ، وسمَّاه : « زاد المسير » ا . هـ .

وقال ابن رجب فى ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤١٦) : « كتاب المغنى » فى التفسير أحد وثمانون جزءاً ، كتاب « زاد المسير فى علم التفسير أربع مجلدات » ا . هـ .

وقد تم طبع زاد المسير بالمكتب الإسلامى سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٦٤ م) فى تسعة أجزاء بتحقيق زهير الشاويش .

المسند » عشرون مجلداً وباقى الكتب بين كبار وصغار يكون خمس مجلدات ، ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر ، كفيتك بهذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم فى التأليف ، فعليك بالحفظ ، وإنَّما الحفظ رأس المال والتصرف ربح . واصدق فى الحالين فى الإلتجاء إلى الحق سبحانه فراغ حدوده . قال الله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : ٧] ، ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢]

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة : ٤٠]

وإيَّاكَ أن تقف مع صورة العلم دون العمل به . فإن الدَّاخلين على الأُمراء والمقبلين على أَهْلِ الدنيا قد أعرضوا عن العمل بالعلم فَمُنِعُواْ البركة والنَّفع به .

* * *

فصـــل
العِلْمُ والعَمَلُ مُتَلازِمانِ

وإيَّاكَ أنْ تتشاغل بالتعبد من غير علم ، فإنَّ خلقاً كثيراً من المتزهدين والمتصوفة ضلُّوا طريق الهدى إذْ عملوا بغير علم[1] .

واستر نفسك بثوبين جميلين لا يُشْهِرَانِكَ بين أهل الدنيا بِرِفْعَتِهِمَا ! ولا بين المتزهدين بِضَعَتِهِمَا ، وحاسب نفسك عند كل نَظْرَةٍ وكَلِمَةٍ

(١) روى ابن عبد البر فى جامع بيان العلم ص (٥٤) والخطيب فى الفقيه والمتفقه (١ / ١٩) وابن أبى شيبة فى المصنف (١٣ / ٤٧٠) أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه قال : « من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح » وروى ابن عبد البر أيضاً (ص ٢١٥) وابن أبى شيبة (١٣ / ٤٩٩) أن الحسن البصرى رحمه الله قال : « اطلب العلم طلباً لا يضرُّ بالعبادة ، واطلب العبادة طلباً لا يضرُّ بالعلم ؛ فإن من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح » . وقال العلامة ابن القيم فى مفتاح دار السعادة : (١ / ٨٢ ، ٨٣) : « إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته ، وإن قدر سلامته اتفاقاً فهو غير محمود ، بل هو مذموم عند العقلاء وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « من فارق الدَّليلَ ضلَّ السبيلَ ، ولا دليل إلَّا بما جاء به الرَّسولُ » ا . هـ .

وَخَطْوَةٍ فإنَّك مسئول عن ذلك ، وعلى قدر انتفاعك بالعلم ينتفع السَّامعون ، ومتى لم يعمل الواعظ بعلمه زَلَّتْ موعظته عن القلوب كما يَزِلُّ الماء عن الحجر [1] .

فلا تَعِظَنَّ إلَّا بِنِيَّةٍ ولا تمشين إلَّا بِنِيَّةٍ ، ولا تأْكُلَنَّ لقمة إلا بِنِيَّةٍ [2] ، ومع مطالعة أخلاق السلف يَنْكَشِفُ لك الأمر .

* * *

---

(١) أخرج الخطيب البغدادى فى اقتضاء العلم العمل (٩٧) من طريق جعفر عن مالك قال : قرأت فى التوراة : « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلَّت موعظته عن القلوب كما يزلُّ القطرُ عن الصفا » .

وقال ابن الجوزى فى اليواقيت الجوزية ص (٩٥) : « العلم والعمل توءمان أمهما عُلو الهمة » .

(٢) راجع الكلام على النية وتعظيم أمرها فى جامع العلوم والحكم ص (٢٠ ، ٢١) .

فصل
من روائع التصانيف

وعليك بكتاب « مِنْهاجِ المُرِيدِين »[1] فإنَّه يُعَلِّمُكَ السلوك ، فاجعله جليسك ومعلمك وتلمح كتاب « صَيْدُ الخَاطر »[2] فإنك تقع بواقعات

(١) وقد صنَّف ابن الجوزى كتابا فى المعاملات اختصره من إحياء علوم الدين وأسماه « منهاج القاصدين » ذكر فى كتابه القصاص والمذكرين ص (٣٧٢) أنه فى شرح المعاملات وهذا الكتاب لم يطبع حتى الآن ومنه نسخ خطية في باريس (١٢٩٥) وتركيا (الفاتح : ٢٨٧٢) والظاهرية (٢٤ ـ تصوف) وقد طبع مختصر له . ولا أدرى هل منهاج القاصدين غير منهاج المريدين ؟ فالله أعلم . وقد ذكر الحافظ الذهبى أن منهاج القاصدين مجلدان وذكر ابن رجب أنه أربع مجلدات .

(٢) كتاب صيد الخاطر من الكتب التى صنفها الحافظ ابن الجوزى فجعلها قيداً لصيد الخاطر وما يدور على نفسه من أمور وفكر كان من الأولى حفظها لكيلا تُنْسى كما ذكر ذلك فى مقدمة الكتاب . والكتاب ذكر الذهبى أنه ثلاث مجلدات وذكر ابن رجب أنه خمسة وستون جزءاً وقد طبع الكتاب بدار الكتب الحديثة بتحقيق محمد الغزالى وطبع بمكتبة الكليات الأزهرية بتحقيق عبد القادر أحمد عطا وقد أساء فيها بعبارات ما ينبغى أن تكون للحافظ ابن الجوزى وكذا طبع الكتاب ببيروت بتحقيق سيد الجميلى وقد علق تعليقات خاطئة ما كان له أن يتجرأ بكتابتها على الكتاب . نسأل الله العافية . وطبع بدار الفكر بدمشق بتحقيق على وناجى الطنطاوى وغير ذلك من الطَّبعات .

تُصلح لك أمر دينك ودنياك ، وتحفظْ كتاب « جُنَّة النَّظر » [1] فإنه يكفى فى تلقيح فهمك للفقه . ومتى تشاغلت بكتاب « الحدَائِق » [2] أطلعك على جمهور الحديث ، وإذا التفت إلى كتاب « الكَشْف » [3] أبان لك مَسْتور ما فى الصَّحيحين من الحديث .

ولا تَتَشَاغَلَنَّ بكتب التَّفاسير التى صنفتها الأعاجم ، وما ترك « المُغْنِى » و « زَادُ المَسِير » لك حاجة فى شيء من التفسير . وأمَّا ما جمعته لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها إلى زيادة أصلاً [4] .

(١) ذكره الحافظ ابن رجب فى ذيل طبقات الحنابلة (١ / ٤١٨) : وقال : « وهى التعليقة الوسطى » ا . هـ .

(٢) ذكره الذهبى أنه مجلدان وذكر ابن رجب أنه أربعة وثلاثون جزءاً وذكر ابن الجوزى فى آخر كتابه القصاص والمذكرين ص (٣٧٢) : أن هذا الكتاب « غاية الواعظ » وللكتاب نسخ خطية بدار الكتب المصرية .

(٣) ذكره الحافظ ابن رجب فى الذيل (١ / ٤١٧) وسماه : « الكشف لمشكل الصحيحين » أربع مجلدات .

(٤) قال الحافظ ابن الجوزى فى كتابه القصاص والمذكرين ص (٣٧١ ، ٣٧٢) : « وقد جمعت فى آلات الوعظ كتباً لم ، أسبق إلى مثلها من تفاسير القرآن المهذبة من الزلل ، السليمة من الأحاديث المصنوعة ، منها : كتاب « زاد المسير فى علم التفسير » وأكبر منه « المغنى » ... وأما كتب الوعظ فكثيرة يطول تعدادها ، منها « تبصرة المبتدىء » و « كنز المذكر » ، و « اللؤلؤ » ، و « الملح » ، و « المدهش » ، و « الملهب » ، و « صبائحْد » ، و « نسيم الرياض » ، و « المنتخب » وغيرها .

وبعض هذه الكتب تغنى الواعظ وتكفيه طول عمره ، ولا يحتاج معه إلى زخارف قد ألّفها الأعاجم أكثرها كذب وهذيان » ا . هـ .

فصل
صفة الواعظ النافع

وكُنْ حَسَنَ المُدَارَاةِ للخلق مع شدة الاعتزال عنهم ، فإنَّ العزلة راحة من خلطاء السُّوء ومبقية للوقار . فَإنَّ الواعظ ــ خاصة ــ ينبغى له أن لا يُرَىٰ مُتَبَذِّلاً ولا مَاشياً فى السوق ولا ضَاحكاً ، ليحسن به الظن فَيَنْتَفِعُ بِوَعْظِهِ [1] ، فإذا اضطررت إلى مُخَالطة الناس فخالطهم بالحلم عنهم ، فَإنَّكَ إنْ كشفت عن أَخْلاَقِهم لم تقدر على مداراتهم .

* * *

(١) قال ابن الجوزى فى الصيد ص (٢٣٢) : « ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزاً ولا شرفاً ولا راحة ولا سلامة أفضل من العزلة فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق ؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم ، ولا يعظم عندهم قدر المخالط لهم ، ولهذا عَظُـمَ قدر الخلفاء لاحتجابهم . وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصاً فى أمر مباح هان عندهم ، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم فقد قال بعض السلف : « كنا نمزح ونضحك ، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك » .

وقال سفيان الثورى : « تعلموا هذا العلم واكظموا عليه ، ولاتخلطوه بهزل فَتَمُجُّه القلوب » ا . هـ .

فصـــل

أَدَاءُ ٱلْحُقُوقِ

وأَدِّ إلى كل ذى حَقٍّ حَقَّه ، مِنْ زَوجةٍ وولدٍ وقَرابةٍ . وانظر كل ساعة من ساعاتك بماذا تَذْهب ، فلا تودعها إِلَّا أَشْرَف ما يمكن ، ولا تُهْمِل نفسك ، وعوِّدها أَشْرَفَ ما يكون من العمل وأَحْسنه ، وابعث إلى صندوق القبر ما يسرك يوم الوصول إليه كما قيل :

يَا مَــنْ بِدُنْيَـاهُ اشْتَغَــلْ ... وَغَــرَّهُ طُــولُ الأَمَــلْ
ٱلْمَــوْتُ يَأْتِــى بَغْتَــةً ... وَالْقَبْــرُ صُنْـدُوقُ الْعَمَــلْ

وَرَاعِ عَوَاقِبَ الأُمور يَهُنْ عليك الصبر عن كل ما تشتهى وما تكره ، وإن وجدت من نفسك غفلة فاحْمِلْهَا إِلَىٰ المقابر وذكرها قرب الرحيل ، ودَبِّر أَمْرك – والله المُدَبِّر – فى إنفاقك من غير تَبْذير ، لئلاَّ تحتاج إلى الناس ، فإنَّ حفظ المال من الدين ، « ولأَن تَخْـلُف لَوَرَثَتِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَىٰ النَّاسِ »[1] .

* * *

(١) ففى الحديث « إنَّكَ انْ تذر ورثتك أغنياءً خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفَّفُونَ الناس » رواه البخارى (٢٧٤٢) ومسلم (١٦٢٨) (٨٥) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه .

فصــل

خَاتِـمَةٌ حَسَـنَةٌ

يا بني واعلم أنَّنا من أولاد أبي بكر الصديق رضى الله عنه [1] وأبونا القاسم محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن أبى بكر رضى الله عنه [2] . وأخباره مُوَثَّقَةٌ فى كتاب « صفة الصفوة » ثم تَشَاغل سَلَفُنَا

---

(١) هكذا نسبه رحمه الله : أبو الفرجِ عبدُ الرحمن بن علّى بن محمد بن علّى بن عُبيدِالله بن عبدالله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبدالله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبدالله بن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه القاسم بن محمد بن خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق ، القُرشىُّ التَّيمِىُّ البكرىُّ البغدادىُّ .

(٢) الإمام القدوة الحافظ الحجة ، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة ، أبو محمد وأبو عبد الرحمن القرشى ولد فى خلافة الإمام على ورُبِّى القاسم فى حجر عمته أمِّ المؤمنين عائشة وتفقه منها وأكثر عنها مات سنة ٧ هـ .

ترجمته فى : طبقات ابن سعد (٥ / ١٨٧) وطبقات خليفة (٣٤٤) وحلية الأولياء (٢ / ١٨٣) وتهذيب الأسماء واللغات (٢ / ٥٥) وتذكرة الحفاظ (١ / ٩٦) والعبر (١ / ١٣٢) وسير أعلام النبلاء (٥ / ٥٤) وشذرات الذهب (١ / ١٣٥) . وراجع صفة الصفوة (٨٨/٢) .

بالتجارة والبيع والشِّراء ، فما كان من المتأخرين من رُزِقَ همَّة فى طلب العلم غيرى ، وقد آل الأمْرُ إليك ، فاجتهد أن لا تُخَيِّب ظَنى فيما رجوته فيك ولك ، وقد أسْلَمْتُكَ إلى الله سبحانه وتعالى ، وإيَّاه أسأل أن يوفقك للعلم والعمل .

وهذا قدر اجتهادى فى وصيتى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

والحمد لله مزيد الحامدين ، وصَلَّى الله عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمّد وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم (١) .

* * *

(١) ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بهذه الوصية وأن ينفع بها سائر المسلمين وأن يغفر لكاتبها ولمن كتبت إليه وقارئها وناشرها ومن علَّق عليها ومن دعا الناس إليها وحَضَّهم على العمل بما فيها وتم التَّعليق عليها فى يوم الجمعة المبارك سنة ١٤٠٩ هـ مدينة الاسماعيلية والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على محمد وآله . أبو الحارث أشرف بن عبد المقصود بن عبدالرحيم غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين .

الفهارس العامة للكتاب

١ ـ فهرس الآيات القرآنية .

٢ ـ فهرس الأحاديث .

٣ ـ فهرس الآثار .

٤ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم .

٥ ـ فهرس الموضوعات .

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــة	الســورة	رقــم الآية	الصفحة
ءَآلْـَٔـٰنَ وقد عصيت قبل	يونس	٩١	٦٥
إن تنصروا الله ينصركم	محمد	٧	٧٠
إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع	يوسف	٩٠	٦٥
رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى...	إبراهيم	٤٠،٤١	٢٥
فاذكرونى اذكركم	البقرة	١٥٢	٧٠
فذكر إن نفعت الذكرى	الأعلى	٩٠	٢٧
فلولا أنه كان من المسبحين ...	الصافات	١٤٣، ١٤٤	٦٥
واتقوا الله ويعلمكم الله ..	البقرة	٢٨٢	٣٧
وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم	البقرة	٤٠	٧٠
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر	العصر	٣ ، ٤	٢٧
ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلما ..	يوسف	٢٢	٦٥
ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ..	الطلاق	٢ ، ٣	٦٣
يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم	التحريم	٦	٤،١٧

* * *

٢ ــ فهرس الأحاديث

* * *

٣ ــ فهرس الآثـــار

* * *

٤ ـ فهرس الأعلام المترجم لهم

* * *

٥ ـ فهرس الموضوعات

* * *